السماء على نحو وشيك

روايتان قصيرتان وخمس قصص

عزت القمحاوي

السماء على نحو وشيك

مبنى الجريك كامبس
١٧١ شارع التحرير،
باب اللوق
القاهرة | ج. م. ع.
الرمز البريدي : ١١٥١١
info@battana.org

رقم الإيداع
٢٠١٥/ ٢٦١٣٠

الترقيم الدولي
٩٧٨ ـ ٩٧٧ ـ ٨٥٢٤٩ ـ ٢ ـ ٥

السماء على نحو وشيك

روايتان وخمس قصص

عزت القمحاوي

بتانة

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

القمحاوي، عزت

السماء على نحو وشيك: روايتان وخمس قصص/ عزت القمحاوي.

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٨٥٢٤٩ ٢ ٥

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٢٦١٣٠ / ٢٠١٥

المحتويات

ـ شكر الله سعيك	7
ـ الموقد	45
ـ إنه الخريف	51
ـ يُطاردُ الغبارَ	59
ـ وحدهما	67
ـ عتمة صباحية	77
ـ مقعد في الحديقة	83
ـ عزيزنا الضيف	87

شكر الله سعيك

1

"يا أهـل البلد، أنا ابن المتوُفَـى إن كان لأحدكم على أبي دين فليأخذه منـي الآن" كررها ثلاثًا، كان يقـف معطيًا ظهره للقبلة مواجهًا الحشـد المفصول عنه بنعش أبيه. تبللت عينا عمه مجددًا. كيف صار الطفل رجلًا يقف ويتكلم بهذا الثبات؟!

رجل جديد تخلَّق من العظام الخفيفة الهشة التي تركها السرطان. شق الغلام قشرة الأب وخرج مكتملًا كما في قصص التحول الخيالية. الصلابة التي وسمت عينيه الجميلتين ووجهه الغض لم تخل من كمد. عاود العم ساكن المدينة التحديق بابن أخيه وأجهش.

كان في الطريـق إلى عمله صباحًا عندما تلقى النبأ، اسـتقبله بتسـليم، وربما بارتياح. الموت محتوم منذ أشهر. كان شقيقه ميتًا منسـيًا خارج القبر، لا يفيق من الـدواء المخدر. وكان كل خميس

يقطع المسافات ويأتي لرؤيته. يجلس قربه صامتًا لا يستطيع تبادل كلمة معه. في الأسابيع الأخيرة قلل من زياراته لأنه بدأ يشعر بأن وجوده عبء إضافي على زوجة شقيقه التي أخذت تنحل مثله، وعلى ابنه الذي ينام بعين ويظل مستيقظًا بالأخرى لتلبية إشارة منه في أية لحظة.

عندما رأى اسم زوجة شقيقه على شاشة تليفونه لم يكن بحاجة إلى الكلمات "ربنا استرد أمانته" كان على مقربة من عمله، استدار منطلقًا إلى القرية. وعندما وصل وجد كل شيء جاهزًا. طاولة التغسيل، الكفن، كولونيا اللافندر، والقطن. وقف على تغسيل الجثمان وتكفينه، شارك في حمله ووضعه في النعش، غطاه بالكسوة الخضراء. انهمك في المهمة، خطوة بعد أخرى باعتياد وكأنه يُكفِّن شقيقه كل يوم، لكن صوت الصبي الثابت الآن جعله يدرك حقيقة ما حدث. الطفل الذي كان يحمله بين ذراعيه منذ سنوات قليلة نبهه إلى موت أخيه بشكل مبرم وجعله يجهش. هل هي دموع العجز أم دموع الإشفاق على الغلام؟

خفت نشيج ساكن المدينة تحت نداء الإمام للصلاة على الميت، اصطفت الصفوف، تزاحم الأصدقاء القدامى وأبناء العم كل منهم يريد أن يكون بالقرب منه كي يواسيه، يقرص يده كي يكف، فالبكاء ليس للرجال.

"صلاة الجنازة أربع تكبيرات وقوفًا" قال الإمام، تحسبًا لوجود من لا يعرف كيف تُصلى الجنازة. صوت من الخلف قطع جلبة الاصطفاف طالبًا تقليل المسافات بين الصفوف من أجل استيعاب كل المصلين.

انتهت الصلاة سريعًا، هرول المشيعون يغادرون المسجد الممتلئ عن آخره، حتى لم يتبق سوى الابن والعم والأقارب المتحلقين حول النعش. شرع كهول العائلة في الخروج بينما تسابق الشباب على حمل النعش. تمسك الغلام بالمشاركة في الحمل، منعوه فدخل في الفراغ بين الذراعين الأماميين، وسار ملامسًا برأسه مقدمة الصندوق، وكأنه يريد الالتصاق برأس أبيه المستلقي بالداخل.

أخذ ساكن المدينة يهرول حتى أصبح وسط الموكب الطويل، الذي وصلت مقدمته المقابر، سحابة الغبار تلف وجهه المتعرق تحت لهيب الشمس، وتتحول إلى طبقة من الطين الدبق.

لم يمسح عرقه، الذي يسيل مُطَينًا على وجهه، لا يدفعه عن عينيه المتقرحتين، راضيًا بالجفاف الذي يأكل حلقه. كأن إهانة الجسد عقوبة يوقعها على نفسه لتخفيف إحساسه بالذنب؛ لأنه لم يزل حيًا بينما مات شقيقه الأصغر.

أخذ الطريق يضيق كلما اقتربوا من المقابر، وبدأت مقدمة الموكب في الوصول. انساب نهر البشر جداول في الحارات

بين صفوف المقابر. هذه فرصة المشـيعين من العائلات الأخرى لقـراءة الفاتحة لموتاهم، وتفقد الشـجيرات التي زرعوها للتظليل عليهم وترطيب نومتهم، واستطلاع حالة البناء. دون هذا الانتشار في حارات المقابر، كان من المسـتحيل الوصول بالنعش إلى باب المقبرة المفتوحة.

أصر الغلام على دخول القبر قبل أبيه للاطمئنان على نومته الأخيرة، فرش له مقطفًا من الرمل النظيف. كشف الرجال الغطاء عن النعش، وبسهولة حملوا الميت الذي صار بحجم طفل وأدلوه إلى المقبرة. تلقفه الابن مع اللحاد، أراحاه إلى جوار الغبار الهش المتبقي من أحدث موتى العائلة.

ارتفع صوت اللحاد بالشـهادتين، وشـرع يراجع على الميت الأجوبة الصحيحة لأسئلة ملكي الموت اللذين سيأتيان بعد انصراف الجمع.

- إذا جاءك الملكان وسألاك من ربك قل الله، من نبيك، قل محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول، والغلام يكرر وراءه رافعًا صوته. يعرف أن أباه سيسمع له هو وليس للحَّاد، هو وحيده الذي صان أسرار أسابيعه الأخيرة عن أعين الآخرين، حتى عيني أمه. كان يتلقى استفراغه في يديه،

يخلع عنه ملابسه التي تغوط فيها، ينظفه ويعطره ويلبسه ثيابًا نظيفة. أخذ يُنغّم صوته بالتلقين كي يستميله كما كان يفعل في الأيام الماضية، عندما كان يحاول إقناعه بفتح فمه لملعقة حساء أو حبة دواء. وعندما بدأ اللحّاد الدعاء للميت أخذ في رفع صوته كي يحض المشيعين على الترديد، ليكونوا شفعاء لأبيه.

انتهت المراسم وخرج الغلام مغبرًا، تاركًا للآخرين إهالة التراب على فتحة القبر. استبق عمه ورجال العائلة تقهقرًا إلى طريق العودة حتى لا يفوته شكر أول المغادرين.

وقف بجوار عمه في مقدمة الأقارب الذين اصطفوا على جانبي الطريق الضيق مثل ضفتين ينساب بينهما نهر المغادرين. كل منهم يرفع يده اليمنى، يحركها كالبندول في مستوى وجهه. يتمتم بكلمات شكر مبهمة للمعزين. بين وقت وآخر يتقدم زميل دراسة قديم من العم يحتضنه بشدة، فتتداعى ذكريات الصبا، ويبدأ النشيج.

الغلام الذي قرر اليوم أن يكون رجلًا يبدو أكثر صلابة من الجميع، يتجاهل دموع عمه، لا يتوقف بندول يده عن الحركة تحية للمغادرين بينما يردد بصوت ثابت "شكر الله سعيك"، "سعيكم مشكور" لم يكن ينهار إلا عندما يحتضنه أحد أصدقائه أو أحد أصدقاء الأب، يبكون عند المصافحة فيبكي الغلام، بينما يصافحون العم ببرود، كأنهم يلومونه على العيش في مدينة بعيدة، كأنهم يقولون

له: "لست منا، نحن لا نعرف سوى الغلام الذي نضج بيننا"

أول المغادرين كان الشباب. مضوا خفافًا بقوة أجسادهم التي شقت الزحام أو بقوة رغبة الحياة التي تدفعهم إلى الابتعاد عن موطن الموت في أسرع وقت ممكن. وأخذت أعمار المنصرفين تتزايد، حتى غادر آخر المسنين، بعضهم يتحامل على نفسه ليمشي منفردًا، بعضهم يتساند على ابن أو حفيد.

- لم يبق أحد.

قال الغلام المصمم على القيادة، وأشار إلى كهول العائلة مفسحًا لهم كي يتقدموه في الانصراف. مضى ساكن المدينة يجر رجليه في انقياد صامت، بينما عادت أصوات الساعة الأخيرة تكرر نفسها كطنين يملأ أذنيه، ويعيد تأكيد ما حدث. عيناه شاردتان باتجاه اللاشيء، لا يريد أن يكون أول من ينظر إلى الآخرين أو أول من يجرؤ على الكلام وقد ترك أخاه وراء ظهره بهذه البساطة.

2

ـ أين ستذهب؟ لا شيء نفعله الآن.

قال ابن العم الذي يسكن البيت المواجه، شارحًا لساكن المدينة تقاليد العزاء في القرية، وكأنه لم يشب هنا بينما يدعوه لمصاحبته إلى بيته. حاول أن يتملص منه ويعود إلى بيتهم؛ بيت العائلة الذي تركه الأعمام لأبيهم، وتركه ساكن المدينة بدوره إلى شقيقه الأصغر الذي أعاد بناءه، وها هو يتركه لابنه الوحيد.

ـ لا أحد يأتي قبل صلاة العصر، سنرتاح قليلًا، ثم نغادر معًا إلى المضيفة.

أصر الجار، وأشار إلى بيت الميت المكتظ بالمعزيات.

ـ لا مكان لك هناك.

قال الجار ملحًا، وأشـــار الغلام لعمه كي يختصر الجدل ويقبل الدعوة. اســـتبقه إلى غرفة الاســـتقبال ببيت الجار التي تتمتع بباب منفصل على الشـــارع، وكأنه يشارك في تذكير عمه بما نسيه من عادات القرية، وليوحي إليه أن يكون على راحته.

خلعـــوا أحذيتهم أمام العتبة. الغرفة مفروشـــة بالموكيت وفوقه السجاد، تتوســـد جدرانها الحشيات مع الوســـائد الاسطوانية التي ظهرت في بيوت العائدين من السفر ويسمونها "قعدة عربي" وهي تطويـــر لعادة الجلـــوس على الحصير في القـــرى، مثلما تطورت المصاطب إلى صالونات وأنتريهات. جلســـوا صامتين، أخذ ساكن المدينـــة يتأمل ابن العم الجار الذي بدت عليه علائم الزمن والنعمة كذلك، سافر أولاده إلى إيطاليا وأتوا بالأموال، هدموا البيت الطيني وبنوا هذه العمارة من ستة طوابق، لكل منهم طابق، الأرضي للأب مع هذه المضيفة التي يسهرون ويستقبلون فيها ضيوفهم. طلبوا من أبيهم الكف عن الشقاء في زراعة الأرض والاكتفاء بالصلاة وأداء الواجبات الاجتماعية.

- بل ريقك يا عمي.

قال ابن الجار الذي دخل بدورق ماء بارد وتركه أمامهم. شكره ساكن المدينة بإيماءة صامتة، وأخرج تليفونه من جيبه، فتحه

فتلاحقت إشارات الرسائل التي انتظرت معلقة في الفضاء ساعات، إشعارات عن مكالمات لم يُرد عليها، رسائل نصية. أخذ يستعرض ما وصله بهدوء وبقليل من الاكتراث. ترك أخاه في حفرة؛ فماذا يهم بعد؟ مدير أو زميل يستفسر عن غياب؟ ما الفرق بين أن يذهب أحدهم إلى عمله اليوم أو لا يذهب؟ ماذا سيتغير في الدنيا؟ وماذا سيأخذ المرء من هذا العناء؟ في النهاية سيأتي ليضطجع بجوار أخيه، أو ربما فوقه بعد أن يتحول ميت اليوم إلى غبار وحفنة من نشارة العظام يكومها اللحّاد في ركن المقبرة. يتوقف الأمر على المدة التي ستفصل بينهما. رسالة من الحبيبة تدفع إلى القلب بدقة واحدة إضافية. برعم حياة يتفتح وسط حقل الموت. النبضة الذنب لا يجب أن تدفع بالدم إلى الوجه لئلا تبدو أمام الآخرين عورة مكشوفة.

الجار، الذي جلس مصالبًا ذراعيه فوق وسادة، قطع همهمته بالتسبيح والتلاوة. رفع رأسه المائل نحو الأرض وجهر فجأة:

- يا سبحان الله! كل روح لها لحظتها.

وشرع يحكي لساكن المدينة ما فاته:

- أمس، حوالي الثانية عشـرة في منتصـف الليل، كنت أتهيأ للنوم، نادوا عليّ. نظرت في وجهه فعرفت بخروج السر الإلهي، عدلناه ناحية القبلة، وغطينـاه. قلت لهم ألا يزعجوك بالخبر في

الليل، لا شيء يمكن عمله والطرق خطرة. الله يرحمه، ارتاح.

تنهد وصمت. أقعى مجددًا، وعاد إلى التسبيح مهمهمًا.

- ربنا يحرسه. لم نره مرة يتذمر.

استأنف الجار حديثه، مشيرًا إلى الغلام الذي لمعت عيناه الجميلتان بفخر خالط حزنه. أحس أنه أدى ما عليه، وكأنه لم يأت إلى الدنيا إلا من أجل حمل أبيه في هذا المرض. في الفترة الأخيرة طلب ألا ينكشف على غيره، حتى زوجته، فقط وحيده من حقه أن يرى ضغفه.

- كان المرض يجعل المرحوم سريع الغضب، وكان يسايره ويريحه.

تابع الجار مدحه للغلام. وأحس ساكن المدينة مجددًا أنه يتعامل معه كسائح. هل في الأمر لؤم؟

- يحكي لي ما أعرفه، ما عايشته قدر استطاعتي وقدر استطاعة أخي وأسرته.

كان المرض يتطاول يومًا بعد يوم ويبريه كقلم رصاص. اصطحبه إلى الطبيب في المرة الأولى، عرف طبيعة المرض

واحتفظ بالسـر لنفسه أسابيع طويلة، لم يطلع المريض عليه، وتابع الدوران به على المستشـفيات، ولم يطلعه على الحقيقة إلا بعد أن تأكد انتشـار المرض وأصبح الموت محتومًا. وانتظم في زيارته كل أسـبوع، يجلس بالقرب منه، يتلقى مع زوجته وابنه مجاملات الزائرين الذين كانوا يدعون بالشـفاء فـي البداية، ومع مزيد من التدهور شـقت الصيغـة المراوغة "ربنا يعفو عنـه" طريقها إلى الأفواه. في الأسـبوعين الأخيرين كف عن الـكلام ولم يعد بطنه يحتفظ بشـيء، استسلم الطبيب "كل ما يهمنا الآن ألا يشعر بالألم، أعطوه المخدر وقتما شاء" تلك الإشارة الأخيرة من الطبيب، جعلت الدعاء أكثر صراحة "ربنا يسهل له" لم يعد الموت مقبولًا فحسب، بل أصبح مطلبًا. والزوجة التي تسابقت مع زوجها على الضمور، صارت تقابل دعاء الزائرين بصمت، ثم بتأمين مستسلم: "يارب"

الشـاب الذي أحضر الماء، قام ومضى إلـى الداخل. لحظات وعاد بمفارش بلاسـتيك بسطها فوق السـجادة، وخلفه جاء شقيقاه الآخران يحملان صينية كبيرة عليها الطعام.

قطع الجار حكاياته، ودعاه للاقتراب من الغداء.

ـ لقمة تصلب طولك، ستقف على رجليك حتى نصف الليل.

قال، وتقدمه إلى المائدة. اقترب الشباب، أمسك كل منهم بملعقته يديرها في يديه، إحساس بالذنب يلف ساكن المدينة، الحلق جاف مغلق. مع أول ملعقة ارتفعت بالمرق الساخن فاضت الدموع في عينيه.

شرع يمس الطعام في صمت يقطعه صاحب البيت بالتشجيع، يدفع إليه بقطعة لحم، ومرة برغيف، يحثه على الأكل فيحتقن وجهه بالحزن، يتذكر أنه يأكل ما لن يتذوقه شقيقه مرة أخرى. بدأ الغلام يشارك في حث عمه، بينما يرفع الملعقة إلى فمه بشهية وفي عينيه المتعبتين ارتياح المحارب العائد بالنصر.

3

ـ هل نحن في عرس؟!

تساءل ساكن المدينة متبرمًا عندما اقتربوا من المضيفة ولاحت لهم اللمبات التي تزين الشارع مشدودة بين صفي البيوت.

ـ هكذا صاروا يفعلون.

رد الجار، وتوقفوا أمام الباب يتابعون شابًا يقف فوق سلم خشبي يثبت أسلاكًا تتصل بمولد الكهرباء الرابض في الحارة الجانبية. ضغط الفني الواقف على الأرض زر التشغيل وأخذ يتأمل الإضاءة بالخارج والداخل، نادى على مشغل الصوت ليختبر أجهزته. أشار لمساعده كي ينزل وأطفأ المولّد فانقطع الضجيج.

ـ كله تمام.

قال رجل الكهرباء، وأمّنوا برؤوسهم.

ـ هكذا سيكون المُوَلّد جاهزًا إذا انقطع التيار.

قال الجار، لساكن المدينة.

بدأ توافد الأقارب، بينما انفصل الغلام ودخل إلى الغرفة الجانبية الملحقة بالمضيفة. حيا رجل الخدمة، تطلع إلى نظافة الأكواب والفناجين، تأكد من وجود الشاي والسكر والبن. في السابق كان الأقارب من أطراف العائلة يتولون أمر الضيافة، يضعون أنفسهم في الخدمة تلقائيًا، وكان فنجان قهوة مُرة وحيد كافيًا للدوران على المعزين لأنهم جميعهم يرفضون قبول المشروب احتشامًا. ومنذ سنوات أصبح في القرية نُدل متخصصون يقدمون القهوة المحلاة والشاي كما في دور المناسبات بالمدينة، وأصبح المتفاخرين من الأغنياء يدسون في يد النادل نقودًا، متباهين بالمعاملة المتميزة التي يتلقونها فور دخولهم إلى مكان العزاء.

عاد الغلام راضيًا عن الاستعدادات. ودخل الرجال إلى المضيفة يتأملون نظافتها.

ـ السلام عليكم.

حياهـــم المقرئ الرئيســـي الذي دخل مزهوًا فـــي جبته الأنيقة والعمامة. جلس على دكة القراءة التي تتســـع لمقرئين في صدارة المضيفة. نقـــر بخاتمه علي الميكروفون، ردد "آلو آلو، بســـم الله الرحمـــن الرحيم" لم يعجبه الصدى. نـــادى "يا حرامي" جاء فني الكهرباء يهرول باسمًا. تبادلا الدعابات. انحنى الفني يضبط ذراع الميكروفون، وسحب المقرئ ساقيه متربعًا ليختبر الصوت مجددًا فـــي وضع التلاوة الطبيعي. دس نقودًا فـــي يد الفني الذي وضعها فـــي جيبـــه دون أن ينظر ورفع يديه بالتحيـــة وانصرف مهرولًا، كاد يصطدم بالمقرئ الآخر، الأقل بســـطة في الجسم، الأسن، الذي واصل طريقه وحيدًا، وارتقى الدكة قفزًا إلى جوار زميله.

بدأت طلائع المعزين في الوصول، تدافع الأقارب إلى البوابة ليكونوا في استقبالهم. وقف ساكن المدينة بينهم في صف امتد نحو عشرين مترًا خارج المضيفة. مرة أخرى بدأت الحركة الآلية للتحايا المحفوظة "حال الدنيا" يقول المعزي، ويتلقى الرد "شكر الله سعيك" ليس مهمًا أن يرفع صوته أو يسمع الرد المعروف.

بدأ المقرئ الوســـيم التلاوة، هادئًا، يصّاعد صوتُه تدريجيًا حتى غطى على هرج الداخلين الذين يتوجه كل منهم ليجلس في المكان الذي يرى أنه يســـتحقه. بســـرعة امتلأت المضيفـــة عن آخرها.

واضطر القـــارئ إلى قطع تلاوته فجأة لكي يســمح بمغادرة فوج وإفســـاح أماكن لمعزين آخرين يقفون فـــي ممرات المضيفة. مجد الميت وعائلته ودليل احترامهم يتبدى في الازدحام.

في لحظات انقطاع التلاوة يرتفع ضجيج القادمين والمغادرين الذين تتصادم أكتافهم وهم يحيون أهل الميت ويتبادلون التحايا مع بعضهم البعض، ثم تبدأ الأصوات هبوطها التدريجي، مع استئناف التلاوة.

وجد المقرئ فرصته في استعراض قدراته الصوتية عندما بدأت أعـــداد المعزين بالتناقص. بدأ في تنغيم الآيات وتلوين النطق على القراءات الســـبع، وشـــرع معجبوه المبثوثون في الزوايا يرفعون أصواتهم استحســـانًا، وهو يتمادى في الاستجابة لطلبات الإعادة. انضم المقرئ الآخر إلى المشـــجعين هازًا رأسه، رافعًا صوته "يا سلام يا شيخ" بينما أرسل بنظرته إلى الخارج يستطلع الشمس ليرى إن كان ســـيترك له فرصة للتلاوة قبل الغروب. اختلس نظرة إلى ساعته وردد بضيق: "الله الله" ابتسم له المقرئ الوسيم وبدأ هبوطه التدريجي مختتمًا. أزاح الميكروفون باتجاهه كما يزيح الســـيد بقايا مائدته للخادم.

صارت الأعداد قليلة جدًا. جماعات أو مثانٍ متناثرين يثرثرون.

المقرئ الوسيم يهز رأسه لزميله مشجعًا، يُقلّب عينيه بين الحاضرين متطاوسًا، يتعثر الرجل فيشجعه ساخرًا "انتع يا شيخ، ربنا يجبرك" بدأ رجال العائلة في الجلوس بعد أن تأكدوا من انقطاع المعزين. بعضهم يدور بين الصفوف يحيي الجالسين القلائل. اختتم الشيخ المسن قراءته، وبدأ انسحاب المعزين إلى المسجد من أجل صلاة المغرب. المسنون من الأقارب ظلوا جالسين، طلبوا من الشباب بسط الحصائر للصلاة.

بدأت نساء العائلة يتوافدن بصوانٍ كبيرة، يخرج الشباب يتلقفونها من فوق رؤوسهن ويضعونها على الحصير المفروش. جلس كل منهم أمام الصينية التي جاءت من بيته، وبدأ في دعوة الموجودين للطعام.

- لقمة على قدر ما تستطيع قبل أن يؤذن للعشاء ويبدأ توافد الناس مجددًا.

قال أحدهم ليقنع ساكن المدينة بالجلوس.

- أكلنا من ساعات قليلة، في الظروف العادية لا آكل بهذه السرعة.

أجاب، لكن الغلام غمز الغلام له وأخذ بيده:

ـ لن يسكتوا، اجلس حتى لو لم تأكل.

استسلم ساكن المدينة وأخذ مكانه بينهم.

ـ أعرف أنك لا تحب اللحم، أليس كذلك؟

قال أحدهم ممازحًا جاره، وابتسم آخرون. تجاهل ساكن المدينة المزاح فعاد الصمت إلى مائدتهم، بينما كانت الهمسات تصل مسامعه من الموائد الأخرى. انتهوا سريعًا من الأكل. حُملت الصواني إلى الخارج. أحضر شابان ماء وطشتًا لكبار السن غسلوا أيديهم في أماكنهم. بدأت ثرثرات قطع الوقت. يسأل كهل شيخًا طاعنًا:

ـ هل أنت من جيل أبي يا عم الحاج؟

ويرد الشيخ:

ـ هه! أبوك من هذا العيّل؟ أنا من جيل عمك الله يرحمه، من مواليد 1920، والله زهقت.

ـ لا تقلق، الأسبوع القادم، في مثل هذا اليوم إن شاء الله نشيعك.

يرد الكهل، بينما أخذ يهز الشيخ من كتفه مداعبًا.

بدا الميت بعيدًا منسيًا، لا شيء في المزاح المفتوح يشير إليه، هو الذي جمع هؤلاء على مائدة في مكان كان بالأمس مغلقًا على الظلام والغبار.

تناهى إلى آذانهم صوت آذان العشاء. غادر الأصحاء إلى المسجد، وشرع الشيوخ في صلاة ركعتي السنة فرادى في أماكنهم، ثم نادوا لصلاة الجماعة، واصطفوا جالسين.

بعد الصلاة وقف رجال العائلة مجددًا لاستقبال المعزين. عاد المقرئان. أخذا مكانيهما، وبدأ المقرئ الرئيسي في التلاوة، بينما يتوافد المعزون.

مع الوقت أخذ الوهن يدب في أجساد الواقفين، شرعوا يتناوبون الجلوس، حتى انقطع دخول المعزين فتجمع الأقارب في الداخل. اختتم المقرئ المسن تلاوته وطلب من الجميع قراءة الفاتحة على روح المتوفى. قام المقرآن واتجها إلى ساكن المدينة، صافحاه وغادرا. عاد الأقارب إلى جلستهم. مرت لحظات صمت قطعها القريب المسن. أشار بعصاه إلى السقف:

- انظروا؟ إن لم يرمم سيسقط فوقنا في يوم من الأيام.

- خطر فعلًا، واضح أن المقاول غشكم في البناء.

رد مجاملًا، فعاد الشيخ للكلام:

ـ مقاول ماذا؟ نحن بنيناها بأقل الإمكانيات، حملنا الخرسانة بأنفسنا، ووفرنا من كل شيء، لم نخدم السقف كما ينبغي، ولم نصبه في وقت واحد، كنا كلما جمعنا القليل من المال نصب به باكية.

بدا مستعدًا للكلام إلى الأبد. وبدأ البعض في التثاؤب.

ـ وهذه المصاطب ينبغي أن نغيرها إلى كراس خشبية مريحة تليق بنا، كل مضائف العائلات الأخرى استغنت عن المصاطب إلا مضيفتنا.

لم ينل تعليقًا، وعاد الصمت يحلق فوق الرؤوس.

ـ لماذا نجلس هنا؟

سأل ساكن المدينة، وكأنه اكتشف فجأة غرابة المكان. وقفوا تباعًا، وخرجوا. كانت القرية غارقة في الظلام.

4

قاد الغلام عمه إلى البيت عبر حارات خلفية تختصر المسافة.

متى بنيت كل هذه البيوت العالية التي تشبه عشوائيات المدن؟ لم تسبق له رؤية هذه المباني من قبل. أخذ يتلمس طريقه في الظلام، لم يعد الحزن وحده يثقل روحه، بل التعب ورائحة بدنه التي يشمها نفّاذة. لم يخلع ملابسه من الصباح فتدبقت بالعرق والغبار. الضوء الشحيح المنساب من بعض الأبواب جعله يتعرف على المكان بالتقريب، يحدس ما كان عليه من قبل.

ـ ألم تكن هذه سراي محيي أفندي؟

يسأل، فيشرح الغلام:

ـ قسموا البيت القديم والحديقة، بعضهم بنى حصته وبعضهم باع.

تتداعى الذكريات في رأس ساكن المدينة. بعد السراي ببيتين كان هنالك الجرن؛ الأرض الفضاء التي كانت تنشغل مرتين في السنة مع محصولي القمح والأرز ثم تتسع للعب الصبية طوال العام. لم يعد الجرن موجودًا هو الآخر. شجرة النبق الوحيدة التي كانت في ركن منه لم تزل في مكانها، ترسل بأغصانها داخل شرفة قبيحة صغيرة.

من عطفة إلى أخرى مشى وراء الغلام، تاهت منه المعالم مجددًا، حتى وجد نفسه فجأة أمام البيت. كان القليل من نساء العائلة يجلسن في المدخل حول زوجة الأخ. تساندت على الحائط ووقفت تصافحه؛ تتناولت يده، ضغطتها.

- البركة فيك.

قالت باقتضاب. تأمل عينيها المتورمتين، وجهها أصفر شاحب، ليس شحوب الحزن أو الإرهاق الذي عرفه في وجهها طوال أشهر كانت خلالها زوجة رجل مريض. ما يراه الآن هو شحوب شيخوخة غضة عمرها أربع وعشرون ساعة فقط. شاخت الشابة فجأة بعد أن صارت أرملة.

صعد مع الغلام إلى شقة الطابق الثاني. صدمته رائحة ثقيلة وفوضوية من روائح الأدوية والمطهرات وعثة السجاد، هزمت رائحته، فلم يعد يشم عرقه.

المبولة الصغيرة لم تزل أمام باب غرفة شقيقه. علب الأدوية في مكانها على طاولة التليفزيون داخل الكيس البلاستيكي الضخم. بعضها تناول منه حبات قليلة، بعضها لم يُفتح من الأساس. كان كلما زاد عليه الألم يطلب حمله إلى طبيب جديد، يجري فحوصا جديدة، تصل إلى ذات النتيجة، لكن الطبيب يصف أدوية جديدة، يعود بها المريض، سعيدًا وكأنها إكسير الحياة الذي سيصحح أخيرًا مسيرة من أخطاء التشخيص والعلاج. يفرغ الأدوية في الكيس الكبير ذاته، لن يخطيء في تمييز العلب الجديدة من القديمة التي يتذكر كم حبة باقية في كل علبة منها، اسم الطبيب الذي وصفها، تاريخ الوصفة، وظروف الذهاب والعودة. كلما آنس في نفسه طاقة يُقلبها بين يديه واحدة فواحدة ويعيد رصها، مثلما يفعل العائد من السفر بتذكاراته التي جمعها على عجل دون أن يتفحصها وقت الشراء.

تقدم الغلام وفتح النافذة دون أن يغير وضع الكرسي الذي اعتاد أبوه أن يقضي عليه العصرية. عندما عجز عن الخروج والجلوس أمام البيت، وضعوا له هذا الكرسي في مواجهة النافذة، يطل منه على حركة الشارع، يرى العائد من وظيفته، والذاهب إلى حقله مع بهائمه، والطفل الذي خرج من باب بيته باكيًا. تنجز الزوجة أشغالها وتأتي لتجلس بالقرب منه.

ـ لم أر الحاج عبد الحميد من يومين.

يهمس، فترد:

ـ أمس صوته كان واصلًا إلى آخر البلد، لا يكف عن الزعيق في وجه المسكينة.

يرتد إلى الصمت ويرسل ببصره إلى البعيد. تقطع السكونَ ذبابةٌ، تحط على وجهه. تمد الزوجة يدها تهشها وتعود هي الأخرى إلى شرودها. ينتظر حتى تلتقي عيونهما:

ـ والأستاذ سعيد؟

يخرج السؤال واهنًا كأنه يوجهه للأحد.

ـ يا رجل! من الذي كان جالسًا معك أمس؟ هنا، مكاني على هذا الكرسي؟

ترد بحنان؛ فيهز رأسه ويشرد مجددًا. تدرك ما يخشاه؛ فتهمس.

ـ عادي، أنت طول عمرك نسّاء.

تستمر جلسته أمام النافذة من العصر حتى عتمة ما بعد المغرب، لكنها أخذت بالتناقص يومًا بعد يوم، وعندما لزم السرير في الفترة الأخيرة، لم يزحزح أحد الكرسي عن وجهته.

جلس ساكن المدينة على الكرسي الذي اعتاد أن يجلس عليه في مواجهة شقيقه. أخذ يتأمل الكرسى الخالي. غمره حزن جديد، حزن كتيم، مصمت، بلا باب للخروج، ليس كالحزن الذي كان يستشعره بجوار أخيه أيام المرض؛ ذلك الحزن المخلوط بإشفاق كذلك الذي نحسه تجاه طفل حيوي أجبرته الحمى على الرقاد. كان الميت مكلامًا طوال حياته، يكرر الحكاية نفسها مرات، مضيفًا تفصيلة لا لزوم لها في كل مرة، هو وحده يرى أهميتها، ويشدد على أنها سقطت منه في المرة السابقة سهوًا.

- تحتاج إلى قليل من الراحة.

قطع الغلام على عمه تأملاته. ودخل غرفة أبيه وعاد حاملًا منشفة وجلبابًا نظيفًا من ملابس المرحوم. أشار إليه العم جزعًا كي يعيد الجلباب إلى مكانه.

جلس الغلام فعاد السكون. أخذ العم يُنقِّب في ذاكرته عن المرات التي أهمل فيها الاستماع إلى حكايات شقيقه المستفيضة، المرات التي منع نفسه فيها عن مديح شيء جديد لاحظ وجوده في البيت، حتى يحاصر حماس الشقيق في شرح الإنجاز، منذ ولد كفكرة في رأسه ثم طريقة التفاوض عليه مع البائع، والطريقة التي نقله بها

إلى أن استقر في مكانه. أحيانًا، كان ينتبه إلى ضيقه أو يستشعر عدم اهتمامه، فيضطرب وينسى، تهرب منه بقية الجملة، فيتركها مبتورة. يستغرق في صمت احتجاجي لا يلبث أن ينساه ، ويشرع في حكاية جديدة.

ـ لم أكن أتحلى بما يكفي من الطيبة كي أسعده بالانتباه إلى حديثه.

قال ساكن المدينة مؤنبًا نفسه، بينما ترمق عيناه الكرسي الخالي وتهربان سريعًا بجفول مثل يد اصطدمت عفوًا بموضع البتر في الفخذ. تلتقي نظراته بنظرات الغلام حزينة، وسرعان ما يغمرها الارتياح لانقطاع الألم رغم افتقاد الساق.

لم يغير صمتهما الطويل من حقيقة فراغ كرسي النافذة. حمل ساكن المدينة المنشفة ومضى إلى الغرفة التي اعتاد النوم فيها.

5

عندما تطعن النخلة في السن، ويصبح جذعها الطويل عرضة لعصف الريح، لا يستسلم المزارع الماهر بسهولة لموت عمته العجوز. يُثبّت خاتمًا من القش والحبال قرب رأسها، ويرفع فوقه حلقة من التراب، يواظب على ريها، حتى تضرب النخلة جذورًا جديدة في ذلك الخاتم، فيقطعها من تحته مباشرة، ويعيد غرسها، فتكون نخلة جديدة صغيرة مثمرة، متمتعة بكل نضج الأم.

كان شقيقه الصغير، تلك النخلة التي انبثقت من أبيهما. عمّر البيت وجدد أثاثه وأدوات المائدة، متقمصًا دور الأب بعد رحيله. لم يقبل أي تغيير في عادات العائلة. "كيف تبقى وحيدًا كالمقطوع من شجرة؟" يرتفع صوته في التليفون مؤنبًا ساكن المدينة عندما يراه متكاسلًا عن القدوم إلى القرية لقضاء العيد. يستعد بالخروف الذي واظب على تسمينه طوال العام، يعود من صلاة العيد ليذبح

الأضحية، ثم يوقظ شقيقه لتناول إفطار من الكبد والأحشاء التي لم تغادرها سخونة الحياة بعد.

صار الصغير أبًا لشقيقه الكبير، بكل التحسينات التي يمكن أن تضيفها حيوية الشباب على تلك المكانة الأسرية؛ فأنساه موت أبيه الذي كان غيابه منطقيًا بحكم الشيخوخة، أما الآن فالأمر مختلف، وعلى الرغم من متابعته زحف الموت يومًا بيوم على جسد شقيقه، إلا أنه لم يكن قد استعد لهذا الخلل في ترتيب الرحيل.

دبت الحركة بالبيت قبل انبثاق الشمس، ثم صارت الجلبة واضحة، وارتفعت الشمس في السماء، ووصلت وخزات أشعتها إلى داخل الغرفة، دون أن يغادر ساكن المدينة سريره. لم يكن مستغرقًا في النوم، بل كان هاربًا من اليقظة. لحظة الاستيقاظ في غياب شقيقه لا تشبه إلا لحظة إهالة التراب على قبره. للحظتين مرارة اليقين.

طنين ثرثرات المعزيات يقتحم أسماعه فيقطع الطريق على مراوغات الإنكار، بينما تجسد خلطة روائح العرق والدخان والتراب وأنفاس الآخرين الملمس الخشن لحزنه.

لن يحتمل هذه الحكة طويلًا. سيعود إلى بيته بعد أن تنتهي أيام العزاء، سيستحم ويرتدي ثيابًا نظيفة. لكنه لن يفعل ذلك هنا. لم تعبر العادات القديمة حياته دون أثر. ارتاد الجامعة وجاب العالم ولم تزل ترسبات الطفولة تحكمه، حتى البسيط منها، لكنها تكون

في أقوى حالاتها عندما يكون هنا، كأن حصته من التقاليد تنتظره في صرة لا يمسسها أحد غيره.

لن يتحدى ملمس الحزن طالما بقي هنا. وسيتمرغ في ألم استنشاق روائح جسمه ويتحمل طعم المر في فمه عندما يستيقظ. لو تركت المصادفة له فرصة وجود فرشاة أسنان هنا، هل كان سيستخدمها دون إحساس بالذنب؟ طقوس الحزن القديمة سكتت عن نظافة الفم. لم تكن الفرشاة موجودة في الأزمان التي اتفق فيها القرويون على قواعد الحداد: مقاطعة الاستحمام واللحم والحلوى والفاكهة، وعدم إحماء الفرن، وعدم ارتداء الرجال ملابس جديدة، والحفاء وارتداء اللون الأسود للنساء.

بدأ يُميز وقع أقدام في الممر أمام غرفته. لم يعد بمقدوره الاستمرار في التناوم. غادر فراشه وخرج من الغرفة في بدلته وفي ذات القميص الذي تكلست ياقته. كان الغلام في الصالة ينتظره أمام الطاولة وقد تراصت عليها أطباق الإفطار مع إبريق الشاي.

ـ ما هذا؟!

ـ لقمة يا عمي، أنت لم تأكل شيئًا بالأمس.

أجاب الغلام ممعنًا في احتلال موقع أبيه.

جلسا إلى المائدة. تناولا لقيمات مع كوبي الشاي وهبطا سريعًا لبدء اليوم الثاني من العزاء. شقا طريقًا وسط كتلة السواد النسائية

التي افترشت مدخل البيت. عندما وصلا إلى المضيفة أحس ساكن المدينة بالحرج بسبب تأخره، بينما حيا الغلام الجالسين بثبات وجلس.

لم يكن هناك سوى الأقارب. البلدة كلها شاركت في تشييع الجثمان، ثم عادت للعزاء أمس. لا يأتي بين حين وحين سوى معز منعته ظروفه من الحضور أمس، يجلس سريعًا حتى لا يكلف الآخرين عناء الوقوف. صوت التلاوة ينطلق من جهاز تسجيل فوق دكة المقرئ ويختلط بثرثرات الحاضرين الذين يتبادلون أخبار بعضهم البعض، ينادون النادل، يطلبون القهوة أو الشاي بمواصفاتهم الخاصة، ويتعازمون.

- تشرب قهوة؟ فنجان صغير على مزاجك؟

يسأل أحد المعزين، والآخر يرفض؛ فيصر الأول، ويصدر أمره للنادل بإحضار القهوة. يحكون الحكايات، ويستعيدون طرافاتهم التي لا يملون من تكرارها، يتمازحون. تحملهم إلى الجد زجرة من عين ساكن المدينة، وبعد لحظات صمت يصرون على إشراكه في ثرثراتهم.

- "هل تتوقع أن تستقر الأوضاع بعد انتخاب الرئيس الجديد؟ هل سيزورون الانتخابات؟ لمن ستعطي صوتك؟".

لا يردعهم تحفظ الشقيق الذي تحول حزنه إلى غضب. لا يجد رغبة في الرد، لكنه لا يريد أن يكون متعاليًا أو مبالغًا في إبداء حزن من المفترض أن يجتهد الرجال في إخفائه. يفكر أن عليه واجب التلطف، فيبادر بسؤال شيخ عن صحته.

- عال، نحمده، هل سنأخذ زماننا وزمن غيرنا؟!

يرد الرجل بمرح، ويبدأ بالثرثرة.

- كم تظن عمري؟

يشعر أنه فتح بابًا للشيخ المتفاكه، يتجاهل سؤاله، ويهمس موجهًا حديثه إلى الجميع.

- أعتقد، لن يأتي غرباء بعد.

- العزاء هو اليوم الأول فقط، لكننا اعتدنا فتح المضيفة في اليوم الثاني حتى آذان الظهر، وبعدها ننتقل إلى البيت.

يرد الجار الذي أطعمه بالأمس.

- نحن هنا مع بعضنا البعض، أنت سافر إلى أشغالك أعانك الله.

يقول ابن عم آخر، فيدير ساكن المدينة الاقتراح في رأسه. مال على الغلام يسأله عن أجر المقرئين والنادل والتكاليف الأخرى.

ـ كله مدفوع، أبي ترك تكاليف خرجته.

يقول الغلام؛ فيهز العم رأسه، حتى لا يصبح الجدل بينهما شأنًا للنقاش بين الحاضرين. يتطلع البعض إلى ساعاتهم.

ـ الظهر وجب.

يقول أحدهم؛ فيبدأ الحضور في التأهب للانصراف.

ـ استدع النادل.

يقول العم فيرفع الغلام صوته مناديًا. يأتي الرجل. يصافحه العم ويدس في يده بقشيشًا.

ـ ربنا يخليك، لي طلب بسيط عند حضرتك، ابني متخرج من ثلاث سنوات، وأريد له عملًا، أي عمل.

قال الرجل بمسكنة؛ فوعده خيرًا، وتركه يلهج بالدعاء، بينما يتحسس النقود داخل جيبه، يحاول إحصاءها باللمس.

في نور الظهيرة لم يكن بحاجة إلى قيادة الغلام الذي بقي ليشرف على إغلاق المضيفة. شق طريقه إلى البيت، وصعد مباشرة إلى الطابق الثاني من بين صفي المعزيات اللائي صرن أقل عددًا.

ـ ماذا سأفعل هنا غير إعادة استقبال من ودعتهم بالمضيفة؟

الوجوه نفسها والثرثرات ذاتها.

قال كأنه يُكلم نفسه، عندما تهالك على كرسيه متحاشيًا النظر إلى الكرسي المواجه للنافذة.

ـ أنا شقيقه، سأحمل حزني إلى أي مكان، ولن يحكموني بعاداتهم؟

قال لنفسه مشجعًا. وبعد أن تبلورت في رأسه فكرة المغادرة، هتف:

ـ إن كنت سترحل، فليكن الآن.

دخل إلى غرفته، التقط مفتاح سيارته وهاتفه. دخل الغلام ورآه متأهبًا.

ـ بعد الحر يا عمي.

قال الغلام، لكنه لم يستجب حتى لا يرهق الأرملة بعبء الغداء. احتضنه وهبط السلم وفي إثره انطلق الغلام. تركت الأرملة الشابة مجلس النسوة وهرولت وراءهما إلى مكان السيارة في الأرض الفضاء خلف البيت.

ـ مع السلامة يا أخويا.

قالت؛ فتقهقر ليصافحها.

- أنا أيضًا سأغلق الباب وأنام، العوض على الله، استمرار الجلوس والاستماع إلى الثرثرات الفارغة لن يعيد ما راح.

أضافت، وتعثرت فوق الأرض غير الممهدة، لكنها توازنت سريعًا دون أن تتوقف عن الكلام:

- لا تتعب نفسك وتأتي يوم الخميس، أخوك أوصى بعدم إحياء الأخمسة، عد الأربعين يومًا وتعال في اليوم التالي لتخطب لابنك.

هكذا نقلت بنوة الولد إليه بطبيعية. ولم يصدمه الطلب، فقد حاول شقيقه منذ أسبوعين أن يقنعه باستدعاء والد الفتاة ليقرأوا معه الفاتحة، لكنه نبهه إلى أن هذا لا يجوز. "ستتعافى ونذهب إلى العروس لخطبتها في بيتها" حاول وقتها أن يطمئنه، لكن شقيقه كان يعرف أنه لن يقوم مرة أخرى، وكان يحاول أن يطوق جذع النخلة بخاتم الخطوبة، يريد أن يبدأ الغلام حياته ليفتح البيت من بعده. لكنه فكر في رد أخيه مستسلمًا للصمت طويلًا قبل أن يهمهم" البركة فيك" ثم استغرق في النوم.

- هذه وصية المرحوم.

استأنفت لتبعد عن نفسها شبهة الاستعجال. ووعدها بالمجيء في

الموعد؛ فانفرجت شفتا الغلام وتورد وجهه ولمعت عيناه. رفعت الأرملة إصبعها كي تلفت نظر عمه إلى التحول في هيئة ابنها، وابتسمت؛ فسقط عن وجهها نصف شيخوخة الأمس.

الموقد

انظر! بعشرة فقط، وصغيرة. أفضل من الشواية الكبيرة. خفيفة وتكفيني. ماذا أصنع بالكبيرة؟ لا أستطيع حتى أن أحركها من مكانها. هذه سهله الحمل. أحيانًا أشعل النار في الكبيرة، وأنتظر حتى ترعى، وآخذ القليل منها، أتخير القطع الحلوة المتوهجة بهذا الجاروف، تتذكره؟ صنعه المرحوم محمود مع الشواية الكبيرة. أضع القطع المتوهجة في القصعة الصغيرة وأدخلها معي إلى البيت، خصوصًا في الشتاء، الجمر الصافي فقط، لا دخان ولا شيء.

تشرب قهوة؟ شاي؟ كل شيء هنا، لن أتعب، كل شيء هنا. وهذه القصعة خفيفة ومريحة وبعشرة جنيهات. سبحان الله! تعرف؟

اشتريتها صدفة. من ستة أشهر؟ لا؟ يمكن من سنة؟ غريب! لم أعد أتذكر. اشتريتها من أمام الباب، لم أذهب إلى هنا أو هناك. رجل فقير جدًا يا ولداه، كان يدور بأشياء، والله لا أذكر متى. كانت معه مناخل وغرابيل أيضًا، قلت أساعده، سألته بكم؟ قال بعشرة.

أنت ترى، هي قصعة عادية من قصعات البناءين، لكن صنعوا لها هذه القاعدة الاسطوانية التي تراها. انظر الصنعة! حلوة، ملحومة حلو، ترفع القصعة عن الأرض، لو أشعلتها فوق سجادة أو حصيرة لا تحرقها. وكل هذا بعشرة!

حلوة. تعرف؟ الكبيرة ـ فوق أنها ثقيلة ـ أصبحت قديمة، تُسرِّب الرماد، أكلتها الباروما من ناحية أو من ناحيتين، لا أعرف. تحتاج إلى سمكري، لكنها تحتاج إلى سيارة لنقلها، محمود ممكن يأخذها إلى السمكري، عنده صبر لهذه الأشياء. ممكن السمكري يضع لها قطعة صاج صغيرة ويلحمها، ترجع جديدة تمامًا. يووه، محمود مات، الله يرحمة من زمان، ستة أشهر، أكثر، أقل. والله صرت أنسى. لكن هو الذي جاء بهذه الشواية، لا أذكر متى. هل تتذكر أنت؟ جلبها من أجل الشواء، وكانت تكفي عندما يأتي الأولاد كلهم. الآن، كل واحد مشغول في حياته الله يعينهم. وأصبحت هذه القصعة الصغيرة كافية. وبكم؟! عشرة، ماذا تشتري العشرة جنيهات الآن!

تشرب قهوة؟ فنجان صغير. العجيب، لو رأيت الرجل! عجوز يا ولداه، ويحمل على ظهره مناخل وغرابيل، وقصعتين؛ كانت هذه وواحدة أخرى. هه؟ والله لا أذكر، اثنتان أو أربع. هذا الكلام فات عليه ثلاثة أشهر أو ستة لا أذكر. أنت لم تأت من وقتها على ما أظن، لم ترها، رأيتها؟ لا، أنت رأيتها، واستغربت سعرها، أليس كذلك؟ تخيل أنت، عشرة جنيهات!

وتخيل؟! الغربال بعشرة، المنخل بعشرة. والقصعة طبعًا كما قلت لك بعشرة. ماذا سنصنع بالمنخل أو بالغربال؟ قلت مسكين أساعده، أخذت منه القصعة، وثمنها ولا شيء! عشرة! هل هناك شيء بعشرة الآن؟! لا أعرف أين ذهب الرجل؟ الغريب أنني لم أره مرة أخرى، ضروري مات.

عندنا المنقل القديم أيضًا، تذكره؟ كله نحاس، أكبر من القصعة هذه، وله عنق طويل يرتكز على قاعدة مستديرة، وله حلقتان مشغولتان يمكن حمله منهما. عندما تنظر إليه من بعيد تجده جميلًا مثل امرأة متأنقة ترتدي قبعة كبيرة وقرطًا يتدلى من أذنيها. لكن المنقل ثقيل مثل الشواية الكبيرة، اشتريته بالكيلو، لأنه نحاس، تعرف النحاس يباع بالكيلو. والله لا أذكر كم كيلو، لكنه ثقيل وأصبح لونه أزرق مجنزر، والله حتى أسود، أظن. لم يعد النحّاسون يأتون، من ستة أشهر أو أكثر لم أرهم. أنا، حتى لا أعرف أين هو الآن. الشواية في مكانها أمام البيت، ليست مطمعًا. النحاس بالعكس،

ممكن أية يد تمتد لتأخذه إذا تركته بالخارج. المنقل نحاس أحمر في الأصل، القصدير يجعله أبيض مثل الفضة، أكثر بياضًا حتى، كنت أعطيه للنحاسين مرتين في السنة. أظن نحاس أصفر في الأصل. لا، والله! كان أحمر، آه أحمر. الغريب أنني لا أتذكر.

أصفر أو أحمر، لا يهم. القصعة صاج عادي، لكنها خفيفة، وتفي بالغرض. لها مقبضان أيضًا، انظر؟ إصبعان من الخشب، صغيران نعم، لكن يمكن أن تحملها منهما هكذا، وثمنها لا يذكر. أشفقت على الرجل، يا ترى أين ذهب! كان مختفيًا تحت حمله، يدلي بضاعته بأحبال، منخل على صدره مربوط بآخر على ظهره، قصعة أمام وقصعة خلف، هكذا، لا أذكر كم، كان مختفيًا تحت كل هذا الحِمل، ويحمل غربالين كبيرين في اليدين.

كان يمشي كأنه تل يتحرك، يَخرُج من جوفه صوت ضعيف، لا تكاد تسمعه. كان الوقت عصرًا، أظن كان قبل المغرب بقليل، كنت أجلس على المصطبة قُدّام البيت، كان شتاء، وكانت آخر شمس. طبعًا لو كنت أجلس هنا كان من المستحيل أن أراه، مستحيل غريب يدخل حرم البيت، ومستحيل كنت أسمعه من بعيد، صوته ضعيف جدًا يا ولداه. لم يكن في نيتي الشراء استوقفته ليستريح، قلت له تشرب شايًا؟ مسكين، قال أشرب. أنزل كل شيء وجلس بجواري هنا،عملت له الشاي، وأعجبتني القصعة، سألته بكم؟ قال بعشرة. ماذا تعني العَشرة اليوم!

خفيفة وحلوة. كما ترى، ممكن أوقد كم قولحة أو قطعة خشب مع قليل من أغصان تقليم الشجر، ولما تروق النار تمامًا، أضع كنكة القهوة أو الشاي. لم تقل لي ماذا تشرب؟ كل شيء هنا. سهلة كما ترى، وممكن أنتقل وأنقل القصعة معي، أجلس هنا، أو هناك. الشمس تستدير بعد آذان العصر. الشواية الكبيرة ثابتة، لا أستطيع تحريكها. أقول لك صعب جدًا، ومن أجل ماذا؟! هه! عشرة جنيهات!

هي صاج عادي، حديد خفيف، لكن انظر! مطلية من الخارج ضد الصدأ، يمكن أن تتركها للندى ولا تتأثر. الكبيرة كانت متينة جدًا، عيبها أنها كانت غير مطلية فبدأ الصدأ يأكلها. هه؟ لا، انتظر. لا، لا والله، يبدو أني نسيت، كانت مطلية. نسيت، الحكاية فات عليها ستة أشهر أو أكثر. تذكرت، تذكرت، كانت مطلية، وأتى بها المرحوم محمود فوق عربة من عربات النقل الصغيرة تلك، ولم يستطع إنزالها من صندوق العربة وحده، السائق رفع من ناحية وهو من ناحية ومن ساعتها وهي في مكانها في الجنينة وراء البيت.

الأولاد يحبون الشـــواء، أنا لا، وحتـــى لو أحببت، لم تعد هناك أسنان. كانوا يأتون مع أولادهم، الأحفاد كثر، ربنا يحفظهم. ساعات كان واحد منهم يأتي مع أصحابه، يشوون ويقضون اليوم ويذهبون. كنت وأنت قادم تســمع الهيصة من بعيد، مثــل دوي النحل، كنت

أتعصب كثيرًا عندما يأتون، كانوا يغضبون مني، تعرف؟ لم أكن أكره وجودهم، لكن كنت أخاف عليهم من العين.

في الصيف كانوا يشعلون النار بعد أن تنكسر الحرارة وتدور الشمس إلى الجهة الأخرى، يشوون الدجاج واللحم، وأي خضار في المزرعة، ذرة، باذنجان، فلفل، طماطم، وبصل. يأكلون ويسهرون في الفراندا أمام إبريق شاي كبير، والله لا أعرف أين ذهب هو الآخر، كانوا يدفسونه في النار. وكنت أدخل وأنام وأتركهم ساهرين، جدتهم الله يرحمها كانت تسهر معهم، تتهمني بأنني لا أحبهم. معقولة! أنا لا أستطيع مجاراة الشباب في السهر، زمان في سنهم كنت أسهر. الآن لم تعد بي طاقة، وهي تغضب، إذا طلبت من أحدهم خفض صوته. كنت أخاف عليهم، العين فلقت الحجر. أحيانًا كانوا يسافرون آخر السهرة دون أن يدخلوا البيت وأحيانًا يبيتون، ينامون حتى الظهر، لأنهم يسهرون طبعًا، مرات والله يسهرون للصبح.

تصور؟! لا أذكر بكم كانت الشواية الكبيرة، صرت أنسى. وربما لم يخبرني محمود. يبدو أنني سألته ورفض، وأنا لم ألح، المرحوم محمود لم يكن يحب كثرة الكلام. هذا طبعه أنت عارف. ضروري كانت غالية، لكن هذه! يبدو أنه قال لي سعرها؟ هه! والله لا أتذكر، لم أعد أتذكر، لكن هذه بعشرة. لم تقل لي ماذا ستشرب، قهوة؟

إنه الخريف

سيارة أجرة تعبر الجسر الذي يشق المدينة من شرقها إلى غربها. خلف المقود جلس سائق ينظر إلى الأفق الرمادي. فكر. **إنه الخريف!**

منذ ثلاثة عقود يقطع هذه الشوارع وهذا الجسر تحديدًا، وينظر إلى الأفق من خلف هذا المقود. كان يتعرف على الخريف في لسعة البرد الخفيفة عندما تداعب الزغب الأسود بذراعية وتشعره بقشعريرة لذيذة، ولم يكن الأفق يُعتم في مثل هذه الساعة من مثل تلك الأيام. كان بعض السحاب الأبيض يتجمع في سماء زرقاء تحت الشمس البرتقالية الكبيرة القريبة المنحدرة جهة الغرب. منذ أكثر من عقد بدأ البياض يزحف على زغب ذراعية، بينما كان

السواد يتراكم على إفريز الجسر، والرمادي يصبغ الأفق.

لم تغادر المدينة موقعها وتستقر في الشمال كي تحصل على خريف رمادي كهذا، لكنها اتخذت هذا اللون الجديد من كثافة دخان لا يعرفون له سببًا. البعض يقول إنه بسبب حرق المزارعين لقش الأرز الذي ينضج محصوله هذه الأيام. البعض يقول إن الفلاحين يزرعون الأرز ويحرقون القش منذ الأسلاف الموغلين في القدم ولم يكن يصل إلى المدينة، ويؤكدون أن دخان قمامة المدينة الشرهة هو الذي يَعْلق فوقها بسبب اختلاف في توازنات الضغط الجوي في هذا الوقت بالذات. البعض يقول لا هذا ولا ذاك، ويعتبره محض سواد الأيام.

نظر السائق إلى الراكب السارح بجواره، أراد أن يقول له عبارة من تلك التي بلا معنى، ويكسر بها الغرباء الصمت. فكر أن يقول له: **إنه الخريف.** ثم قرر التريث. اختلس نظرة ثانية إلى الراكب. كان على وشك أن يقول له: إنه الخريف، لكنه تراجع.

منذ ثلاثة عقود، كان بوسعه أن يثرثر مع الراكب، عندما كان عدّاد الأجرة يفصل بينهما. الآن، عليه أن يحتفظ بالغموض الذي يمنحه قوة تفاوضية أكبر حول السعر في نهاية الرحلة. لو قال للراكب عبارة من قبيل: إنه الخريف أو إنه الشتاء، سيفهم الراكب أنه يتودد إليه بعبارة ليس لها معنى. وعندما تنتهي الرحلة سيغادر

السيارة ويلقي إليه من موقع القوة نصف ما يستحق من أُجرة على الرحلة التي تقطعها السيارة زحفًا. السيارة العجوز ليست ضعيفة، لكنها تزحف مثل غيرها من السيارات حولها بسبب الزحام.

عطس وفكر. **إنه الخريف!**

ولكن الراكب يعرف ذلك، وسيكون من السخف أن يقول له شيئًا كهذا، سيعتبره الراكب اعتذارًا ملتويًا عن رائحة الدخان داخل السيارة. **"علي أن أعترف أن دخان الاحتراق في سيارتي القديمة يزيد من كثافة دخان الشارع. والراكب لا بد يشعر بهذا، وسيعتبرني أحايله لكي يدفع كما لو كانت السيارة جديدة تمامًا".**

صار الجو خانقًا في السيارة الأجرة التي توقف زحفها فوق الجسر. فكر السائق **"إنه الصيف حل فجاة وهزم الخريف"** أعجبته العبارة التي فكر فيها. نظر إلى الراكب نافد الصبر بجواره. فكر للحظة أن يقول له: **"إنه الصيف يهاجم"** أو **"إنه الخريف يراوغ"** وقبل أن ينطق اكتشف أن العبارتين بلا معنى. وأنه لو قال شيئًا من ذلك فربما لن يفهمه الراكب، وربما يظن أنه يحاول أن يستميله بجملة بلا معنى. الجميع يعرف أن الصيف صار عنيفًا منذ سنوات، وتمدد على مدار العام. لم تعد الفصول الأخرى تتمكن من دخول هذه المدينة إلا خلسة خلال أيام معدودة تبدو خريفًا أو شتاءًا أو ربيعًا، لكنها ليست الخريف ولا الشتاء ولا الربيع.

"هذا الرمادي هو لون أيامي لا الأفق" فكر السائق وأعجبته عبارته مرة أخرى، أراد أن ينطق بها ويتحرر منها، والقضية محسومة وليست مجالًا للمماحكة مع راكب عليه أن يدفع في نهاية الرحلة بما يتناسب مع هذا الزحام. **"سيارتي ليست ضعيفة، ولا خربة، لكن المدينة صارت جحيمًا منذ سنوات طويلة"** زمجر بنفاد صبر متظاهرًا بالضيق من الرحلة، وعلى الراكب المتحفظ أن يراعي هذا الجهد، لكن قلة فقط صارت تعرف الذوق والعدل، عندما يغادر السيارة ويصبح طليقًا في الشارع، سيلقي من الشباك بما يراه مناسبًا من وجهة نظره.

سيارة أجرة تعبر الجسر الذي يشق المدينة من شرقها إلى غربها. في المقْعد الأمامي يمين السائق جلس راكب. طوى الجريدة التي لم يعد بوسعه مطالعة سطورها. نظر إلى الأفق الرمادي حوله. فكر. **إنه الخريف!**

منذ ثلاثة عقود تحمله سيارات الأجرة فوق هذا الجسر، ويقرأ هذه الصحيفة وينظر إلى هذا الأفق. كان يعرف الخريف بلسعة برد خفيفة تداعب الزغب الأسود على ذراعيه فيحس بقشعريرة لذيذة. كان بعض السحاب الأبيض يتجمع في سماء زرقاء. وكانت عناوين الجريدة تعد دائمًا بأشياء سعيدة لا تتحقق، لكنه لم يتحول

عن قراءة الصحيفة في التاكسي. ولم يكن الأفق يتحول إلى الرمادي في أي فصل من فصول السنة. منذ أكثر من عقد بدأ زغب ذراعية يفقد صبغته شيئًا فشيئًا حتى صار في بياض الثلج، وصار إفريز الجسر أسود والبنايات من الجهتين سوداء، وصار الأفق رماديًا، ولم تعد عناوين الصحيفة تعد بأشياء سعيدة، بل بدأت تنفي أحداثًا حزينة تقول إن الشائعات تختلقها. لم تزحف المدينة إلى الشمال حتى تحصل على خريف رمادي، لكنها اتخذت هذا اللون الجديد من دخان السارات وربما من بخار الرصاص المتصاعد من حبر الصحف التي صارت أكثر من اللازم في السنوات الأخيرة. فكر أن المدينة هي المدينة، لا شيء يتغير، وهذا اللون هو محْض سواد الأيام.

نظر إلى السائق السارح بجواره، أراد أن يقول له عبارة بلا معنى، من تلك التي يكسر بها الغرباء الصمت. فكر أن يسب الحَلوف الذي تصدرت صورته الصفحة الأولى. لكنه فكر أن السائق سيعتبرها إشارة تودد. كأنه يريد أن يقول له: **"أنا مثلك، رغم الأناقة التي أبدو عليها، أنتمي إليك وليس إلى اللصوص"** ولن يكون ذلك حلوًا. سيظن السائق الذي يحيا بالارتياب أن الراكب ضعيف ويحاول أن يستعطفه حتى يكون رحيمًا به عندما تنتهي الرحلة، يحاول أن يثنيه عن أجرة مبالغًا فيها قبل أن يفتح الباب ويسمح له بمغادرة التاكسي. فكر أن يقول إن الرجل الذي جعل

الأفق رماديًا هكذا لن يموت. لكنه تراجع، لن يحمل السائق عبارة كهذه إلا على أحد وجهين؛ إما أن يعتبر الراكب منافقًا يتودد إليه بعبارة ليست ذات أهمية، أو يعتبره رجل أمن متخف يحاول استدراجه إلى رد فعل يبتزه به.

فكر أن يكتفي بعبارة عامة لا تعني شيئًا: **إنه الخريف.**

اختلس نظرة أخرى إلى السائق السارح بجواره. وكان على وشك أن يهتف به: **"إنه الخريف"** لكنه تراجع.

خلال ثلاثة عقود، كان يتحدث إلى السائقين بمنتهى البساطة، لكنه كف عن ذلك؛ لأن الاحتفاظ بالغموض يمنحه قوة تفاوضية أكبر حول الأجرة في نهاية الرحلة. لو قال للسائق عبارة من قبيل: إنه الخريف أو إنه الشتاء، سيفهم السائق أنه يتودد إليه بعبارة ليس لها معنى، وعندما تنتهي الرحلة لن يدعه يغادر السيارة، وسيطلب، من موقع القوة، ضعف ما يستحق من أجر على رحلة قطعتها السيارة العجوز زحفًا. السيارة العجوز ليست ضعيفة فحسب، لكنها قذرة وصوتها عال ورائحتها نتنة. وليس من العدل أن يدفع للسائق كما لو كانت جديدة.

"السائق يدرك أنه الخريف، وسيكون من السخف أن أقول له

شيئًا بديهيًا كهذا، سيتصور أنه اعتذار مبطن عن توصيلي إلى وجهة طريقها مزدحم. عليه هو أن يعترف أن دخان الاحتراق في سيارته يخنقني، وألا يتوقع أن أدفع له كما لو كانت السيارة جديدة تمامًا، ثم إنني لست مسئولًا عن الزحام لكنه مسئول عن سيارته".

صار الجو خانقًا في السيارة التي توقف زحفها فوق الجسر. فكر الراكب "إنه الصيف يُبلطجُ ويحتل أيام الخريف" أعجبته العبارة. نظر إلى السائق المتوتر بجواره. فكر للحظة أن يقول له: **"إنه الصيف يستولي على العام".** وقبل أن ينطق اكتشف أن العبارة بلا معنى. وأنه لو قالها سيظن السائق أنه يحاول أن يستميله. لا بد أنه يعرف أن أيام هذه المدينة صارت صيفًا دائمًا، وأن الفصول الأخرى لم تعد ترسل سوى بعض مظاهرها، كأصوات استغاثة سرعان ما تختفي تحت هراوة الصيف. هذا الرمادي لا يعني الخريف، هو لون الأيام لا السماء. القضية محسومة وليست مجالًا للمماحكة مع سائق عليه أن يطلب في نهاية الرحلة ما يتناسب مع سيارته الخربة. من باب الاحتياط زمجر بنفاد صبر ليعطي السائق المتحفظ إشارة ضيق.

كان الجسر يمتد بلا نهاية، والعربات المتوقفة تنفث دخانها. نظر كلاهما في عيني الآخر، ثم إلى الأفق الرمادي. كان واضحًا لكليهما أنه الخريف.

يُطاردُ الغبارَ

من خلف إصيص الزرع برقت عينان تضيئان عتمة الدرج.

ـ ما هذا؟ هل كانت غيبتي طويلة إلى حد تبجح الأشباح بالخروج من ظلام الشقة إلى البسطة؟!

أشعل النور؛ فرأى القطة المستلقية على جنبها، وقد فرشت أثداءها لستة رُضّع. لم تجد أمانا في هذا العالم إلا خلف إصيص اليوكا، الشجيرة قليلة الحساسية التي وضعها على بسطة السلم، لكي تمنع الجيران من وضع كيس قمامتهم أمام شقة يرونها مهجورة.

لم يفكر في وضع الإصيص على هذا النحو من أجل خلق غرفة ولادة في الفراغ بينه وبين الجدار. أخذت القطة تنظر برعب جامد.

وقف ساكنًا فأخذت تتأمله باستسلام لا تقوى معه على لم جسمها حول صغارها.

- لا تخافي؛ لن أضرك، غير أنني لا أطبخ هنا، ولن أضيِّفك شيئًا.

همس، بينما شحن عينيه بتعاطف فهمته القطة؛ فتبدد الخوف من عينيها.

في شبابه، استجاب لإلحاح ابنته واشترى لها قطة، احتمل بقاءها لمدة يومين فحسب. لم يقتنع أن صوت خرخرة القطط الذي يشبه حشرجة مريض الربو يمكن أن يكون تعبيرًا عن الحبور. فتح الباب في غياب الفتاة وأطلق القطة إلى الشارع. الآن يقف مستندًا على عصاه، لا يتأمل القطة بقدر ما يتأمل إحساسه بالتعاطف معها. انتبهت الهررة إلى وجوده فتركت أثداء الأم دون ذعر، أربع منها تسلقت الدرج إلى أعلى، واثنتان دخلتا تحت أمهما فتزحزحت وأتاحت لهما مكانًا لصق الجدار. لمت أطرافها وبدأت تنظر إليه بتوجس أقل. انتبه إلى الشبه بينه وبين هذه القطة.

عندما نشر كتابه الأول قرّظه ناقد كبير في صحيفة واسعة الانتشار"هذا الكتاب ينبيء عن مولد موهبة كبيرة وكاتب يعرف

كيف يسيطر على أدواته" وبعد ذلك تناول العديد من النقاد الكتاب، بعضهم قال إنه يكشف عن مولد موهبة كبيرة، وبعضهم قال إن الكاتب يسيطر على أدواته. لم يلتفت أحد إلى كتابه الثاني، ومع الكتاب الثالث كان قد بدأ يتردد على مقاهي الأدب، تعرف إلى بعضهم قالوا له إنه موهوب، لكنه لا يمتلك ما أسموه "الشيء الضروري لكي تكون كاتبًا كبيرًا" غير أنهم لم يقولوا له ما الذي ينقصه. فتر حماسه وظل كتابه الرابع معلقًا بين روحه والورق. تأتيه الأفكار مثل أزيز نحل يأخذ بالتباعد، وبعد مدة يعود مُلحًا واضحًا.

- سيكون أجمل كتاب في الدنيا.

يقول مبتهجًا، كأنه يرى النتيجة بين يديه. يشعر أنه لا يريد أكثر من بعض وقت الفراغ وبعض الصمت ليفعل ذلك. ولكنه كان أحيانًا يجد الصمت ولا يجد الفراغ، وأحيانًا يجد الفراغ فحسب. عاش مثل قطة شوارع حُبلى تبحث عن مكان آمن لتضع حملًا لا ينتظره أحد. يخلص نفسه من فكي الوظيفة، يطمئن على احتياجات البيت، يغلق على نفسه غرفة النوم، لا يشرع في الكتابة حتى يبدأ نعيب غربان يشوش روحه؛ تتدافع إلى ذهنه الأحداث التي مرت به أثناء اليوم، أمه التي لم يعرف عنها شيئًا منذ أسبوع، مريض يستحق الزيارة، نتيجة امتحانات ابنته التي كانت تتقدم بنجاح يغبطه.

الهررة التي صعدت السلالم توقفت فوق درجة بمستوى رأسه. استدارت وأخذت تنظر إليه. أحس بالامتنان لحسن ظنها به. أخذ يزحف مع عصاه متراجعًا ليستند بظهره على درابزين السلم. وقف يراقب القطة وصغارها، ويختلس بين لحظة وأخرى نظرة إلى الباب المقابل ليستطلع إن كان هناك من يقف خلف الباب. تطلع إلى ساعة يده.

- سترجع الحفيدة الآن من المدرسة.

قالها وخفق قلبه. صارت تشبه أمها تمامًا عندما كانت في مثل سنها، يلعب معها الألعاب نفسها بولع أكبر، يردد عثراتها في النطق مبتهجًا. ستدخل بعد لحظات من الباب وتهتف "جدووو" وتهرول إلى غرفته كما تفعل كل يوم. لن تجده؛ فتزيح الملاءة لتنظر إن كان مختبئًا تحت السرير، تفتح الخزانة، ثم تهتف مرة أخرى "جدووووو" تقف في المنتصف تراقب زوايا الغرفة انتظارًا لخروجه من إحداها.

أحس بوقع أقدام تقترب داخل الشقة المقابلة، رمق عدسة بابها ليرى إن كانت هناك عينٌ تتلصص عليه. تقدم من باب شقته، وأدار المفتاح على مهل، ليتيح للأشباح فرصة الرحيل في هدوء. لا يعرف إن كان هذا الاحتياط مفيدًا لكنه اعتاد أن يتصرف على

هذا النحو منذ رحيل زوجته وانتقاله للعيش مع ابنته.

قبل أن يتخطى العتبة كبس زر الكهرباء، أغلق الباب وراءه وأخذ يستطلع فضاء الشقة. غمرته غبطة الوحدة الآمنة، فشعر برغبة في قضاء الحاجة. أسند عصاه على الحائط، تخلص من ملابسه، كومها على أحد المقاعد، ومضى إلى الحمام. جلس متمهلًا على قاعدة المرحاض، سعيدًا بترك أمعائه تتصرف على هواها.

- آه.

قال مستلذًا ضرطته الصاخبة، ضغط ليحصل على ثانية مثلها. تمنى أن يمنح إحساسه ببهجة التغوط الآمن لأحد أبطال روايته.

- الحرية هي أن تضرط بملء إستك.

أحس بالرضى لنحته لهذا التعريف الجديد للحرية.

في شقة ابنته، وخصوصًا في وجود زوجها، يضطر إلى إحكام إغلاق باب الحمام، يرخي عضلات إسته بالتدريج ليختبر قوة غازات بطنه، عندما يتأكد أنها ستخرج أصواتًا مسموعة يفتعل ضجة تغطي عليها. يطرق بعصاه مشجب المناشف المعدني، يضغط زر الصرف، أو يفتح الصنبور، كي يغطي بصخب الماء على أصوات بطنه.

اغتسل، وتأمل صحن المرحاض قبل أن يضغط زر الصرف. وقف أمام الحوض يغسل يديه، رأى في المرآة الشعر الأبيض والتجاعيد بين ثدييه الضامرين، تراجع إلى الوراء ليرى مساحة أوسع من جسمه. تحسس بطنه بيمينه، مد يسراه واعتصر الكرش بين راحتيه

- هذا طبيعي، هل تريد أن تظل شابًا للأبد؟.

مضى إلى الصالة، اتجهت عيناه إلى حيث سيجلس على طاولة الطعام التي اتخذها مكتبًا. يرى طبقة رقيقة من الغبار تستفزه. يستخرج منشفة نظيفة، يبلل طرفها ويمسح الجزء الذي يفي بحاجته. يرفع منفضة السجائر عن أوراقه، يرى مكانها دائرة نظيفة وسط الورقة المغبرة على السطح، ينفضها، وينقلها إلى المكان النظيف من الطاولة، يمسك بالقلم فيجده مغبرًا تمامًا، يمسحه فيشعر بتعلق التراب بأنامله.

يعود إلى الحمام، يغسل يديه، ويتوجه إلى المطبخ لإعداد فنجان قهوة. ينتبه إلى عريه فيختلس نظرة إلى زجاج الشباك المموه مخافة أن يكون مرئيًا من الخارج. يحاول تضليل خلايا الشم عن رائحة الغبار في المطبخ بتقريب أنفه من القهوة المنعشة فوق النار. يراهن نفسه:

- لن أنشغل وأدعها تفور وتفيض على الموقد.

وقف ينتظر لحظة الغليان، لكن سكون سطح القهوة بدا بلا نهاية، وتملكه إحساس بأنها لن تنضج أبدًا. استدار نحو المغسلة فاستفزه صرصار يجري. هرول نحوه، لكنه اختفي. فارت القهوة وسالت على الموقد. سكب ما تبقى في الفنجان وعاد به محبطًا لفقده طبقته الطحينية التي يحبها. وضعه على الطاولة. ارتدي ملابسه الداخلية وجلس. تذوق الرشفة الأولى وأمسك بالقلم. شم الغبار، تجاهل الرائحة، لكنها أخذت بالتصاعد فأغرقته في موجة من العطس.

- لن أترك أثرًا لذرة غبار واحدة.

قال متوعدًا. وأنهى قهوته بسرعة وشرع يطارد الغبار. نفض الكراسي. بلل المنشفة وأكمل مسح سطح الطاولة. أحضر دلو ماء بالصابون، ألقي به على بلاط الصالة، وشرع يجر الماء عبر الممر إلى الحمام. بدأت العتمة تزحف فأضاء الأنوار كلها، وعاد إلى جلسته متعبًا، تعبق بأنفه رائحة المنظفات المنعشة، لكنه بدأ يشم روائح الغبار وعثة الفرش تتسلل مجددًا من الغرف. قام لإحكام الأبواب. عاد إلى جلسته، أمسك بالقلم، أدار الجملة الأولى في رأسه.

- سأدلل نفسي بفنجان ثان.

بتصميم على فنجان متقن، ثبّت نظرته على الكنكة هذه المرة متوقفًا تمامًا عن الانشغال بأي شيء آخر. بدأ غشاء القهوة يرتعش، ثم ظهر انتفاخان مثل ردفين أسمرين متفجرين، لمح بينهما طرف خيط جملته الأولى التي ستكون مفتتح أجمل كتاب في الدنيا، أدارها في رأسه بحذر، وأغلق النار قبل أن تنفجر الردفين. صب القهوة في الفنجان وعاد إلى طاولة الكتابة. تذوقها. أحسها قديمة بعض الشيء، لم يتذكر متى اشتراها. أشعل سيجارة، وأحس بقليل من التشوش.

- الكتابة كالأشباح، تحب الظلام.

قال ثم قام وأطفأ الأنوار البعيدة عن رقعة العمل. عاد ودوّن الجملة التي ولدت في رأسه أمام الموقد، أخذ يتأملها صامتًا مرة، ومرة يقرأها بصوت عال، ومرة بعد أخرى كان حماسه يتراجع. أحس بالإعياء، فنظر في ساعته.

- لو عدت الآن سأجد الحفيدة مستيقظة.

وضع القلم. سحق السيجارة. سحب منفضة السجائر ووضعها فوق رزمة الأوراق. ارتدي ملابسه والتقط عصاه وخرج.

بينما كان يدير المفتاح في الباب، نظر إلى الفراغ بين الإصيص والجدار. لم ير شيئًا.

وحدهما

تخلص من ملابسه، مبقيًا على الفانلة الداخلية وحدها. جلس لاهثًا يطالع في المرآة صورة جانبية للمرأة المتداعية بجواره. شرعت تخلع قرطها وخواتمها وتضعها فوق البوفيه، فكت أزرار بلوزتها وملّصت ذراعيها منها، ألقت بها على كرسي السفرة وشرعت تبحث عن قفل سوستة الجيبة بينما يتصاعد لهاثها. راهن نفسه على الحد الذي ستصل إليه في عُريّها، وأخذ يراقبها بشغف مقامر أخرج آخر ما تبقى في جيبه.

- ستبقى بالقميص، ربما تخلع السروال الداخلي، لكنها لن تُفلت حمالة الصدر، هي تعرف أنني لا أحب ذلك.

رأت تلصصه في عمق المرآة فرمقته بنظرة محايدة. تحركت متساندة على مقاعد المائدة، حتى خرجت تمامًا من المرآة، التفت نحوها فوجدها قريبة بشكل مفاجيء. أخذ يراقب حجلها، حتى استقرت على الكنبة بجواره، وتخلصت من حمالتيها. تطلع إلى المرآة ليرى كيف تبدو صورتهما. للمرة الأولى ينتبه إلى أن العمق الافتراضي للمرآة المستريحة على الحائط المشترك مع الجار، يقع في الشقة الأخرى. "لو كان العمق حقيقيًا، لرأوا الآن ترهل ثدييها" أعاد التحديق في المرآة مركزًا على صورته. رأى تهدل لغده وبطنه؛ فأحس بالخجل لتحامله عليها.

- الحمد لله، مرت الليلة بسلام. كنت أقرأ المعوذات طوال الحفل.

قالت، وقد هدأ لهاثها قليلًا.

- الحمد لله.

أجابها، بينما دارت عيناه، تستطلعان صورهما مع أولادهما المعلقة على جدران الصالة. أغمض عينيه فرآهم يخرجون من الصور ويتحركون في الشقة. يُلقي كل إطار باثنين، ثلاثة، أربعة، خمسة، أو ستة أفراد بأعمارهم التي كانوا عليها في تلك اللحظة. ازدحمت الصالة بأطفال يطاردون كرة قدم، وآخرين يحملون

الجواريف والجرادل البلاستيكية التي كانوا يستخدمونها في بناء القصور على رمال الشاطيء، بعضهم خرجوا من الصور يلعقون الأيس كريم، والبعض يلعبون بالدراجات.

ملأوا الصالة وانتشروا بالممرات والغرفتين الداخليتين والمطبخ. أحس من الضجة أنه عاد إلى قاعة الفرح التي احتملها على مدى خمس ساعات. استيقظ من تهيؤاته مضطربًا وكأنه شعر بوخز نظرتها المستغرقة في تأمل كيس خصيتيه المطروح بين فخذيه كمنديل متجعد.

عندما تزوجها، لم تكن هذه الشقة الصغيرة تخلو من أخوته وأخواته، ولهذا كان عليهما الاحتشام دائمًا، وقبل أن تتفرق سبل الحياة بأشقائه وتتباعد زياراتهم كان الأولاد قد كبروا. "أولادك ذكور، ضعي هذا في اعتبارك" زجرها ذات مرة عندما رأى الطفل يتحسس صدرها وعُنقَها بانتشاء. لم يسمح لها بالتجول بقميص النوم أو ارتداء المكشوف في الصالة "جسمك فاتن يا حبيبتي وأولادك ذكور" لم يكن يجاملها، كان يعرف أن جسمها فاتن، ولم يتهمها بتعمد التغنج. جسمها يدرك بنفسه أنه فاتن، وكان يشتهي رؤية الإعجاب في عيون الآخرين، يتكلم رغمًا عنها، وتصل فصاحته إلى النساء والرجال على السواء.

عندما تعبت من غيرته أراحته بارتداء السابغ، لكنها لم تتهدم تحت الثوب الفضفاض أو تجر قدميها عندما تمشي. كانت تتحرك برشاقة وخفة حصان متفاخر. وكان صدرها قمة عالية ينكسر فوقها موج القماش، تكاد الحلمتان تخترقان النسيج فتنبهان العين إلى صلابة النهدين المرفوعين بشمم، يلتفتان مع رأسها عندما تخاطب أحدهم. وكان تلعثم الرجال عندما يحدقون إلى صدرها يُصيبه بمرارة مغلفة بالسكر. يقول مسترضيًا نفسه "هناك بعد ما لم يره أو يلمسه غيري"

ـ أغلقتِ جيدًا؟

سألها؛ فأومأت نحو الباب تنبهه إلى وجود المفتاح في فتحته من الداخل. كان إغلاق الباب مهمته، يدير المفتاح منصتًا إلى التكتين، ويتركه في مكانه ليلغي إمكانية الفتح من الخارج. منذ سنوات تحاول إقناعه برفع المفتاح حتى يتمكن الأولاد من الدخول بسهولة إذا أصابهما مكروه، لكنه يرفض بإصرار.

لم يكن الخوف من اللصوص هاجسه، لكنه اكتسب هذه العادة التي اكتسبها من سنوات زواجهما الأولى. كانا يتدبران بصعوبة مناسبات للخلوة. يمتنعان عن الخروج إلى العمل في صباحات لا يتوقعها الآخرون، وأثناء العطلة المدرسية يدفعان بالأولاد إلى

حديقة أو يتركونهما عند أحد الأعمام أو العمات. كانا يبتهجان بمجرد إغلاق باب الشقة عليهما وحدهما. يبدآن متعة التجول بحرية في الشقة كلها، لا يضطران إلى إغلاق باب غرفتهما أو التحفظ عند الصراخ.

كانت بهجته الكبرى في الاستحمام معها. يتبختران عاريين إلى الحمام، ينظر كل منهما إلى نفسه كأنه يتعرف على أعضائه للمرة الأولى، يرتد بصره إلى جسد الآخر، يتفحصه بانتشاء. تقف في البانيو تنتظر مبادرته. يضبط حرارة الماء، يسلط الرشاش عليها، ثم يبدأ في تصبينها. يطوق رقبتها وتنزلق راحتا يديه على نحرها، تصعدان فوق موجة النهدين ثم تنحدران لتتذوقا استواء البطن، يفتح يديه مثل فكين متقابلين، يطبقهما على خصرها، يضغط في المكان المستدق كي يشابك أطراف أصابعه، ثم يوسع بين راحتيه كي يحتوي بطنها، يتلمس الاتساع نزولًا إلى الحوض، ثم تصعد الكفان مجددًا ببطء لتمسكا بالخصر الدقيق وتلمسا الاتساع حتى القفص الصدري. بقفزة تتسلق يداه نهديها، تحتويانهما، يمد إصبعي الوسطى والسبّابة في كل يد كطرفي مقص يحبس بينهما الحلمتين. ويستريح على هذا الوضع مغمضًا عينيه؛ يتوهم أنه نحت جسدها للتو. يسلط عليها الماء مجددًا حتى تنجلي من تحت الصابون، ثم ينفض عن يديه الرغوة، مثل نحّات يتخلص من بودرة الحجر.

لم تكن تثني على جسده إلا مواربة "خلقنا لبعضنا بالمقاس" تقول بينما تشب قليلًا على أصابعها، لتصبح شفتاها على مستوى شفتيه، يسكن منتظرًا القبلة فتتراجع ملقية برأسها للوراء، بينما تدفعه بضربة من نهديها في صدره. ويأتي دورها في تغسيله، تحاكي حركاته بتلمس تضاريس جسمه. تتولى تصبينه، تتحسس حرارة الماء على يدها قبل أن تُسلّطه عليه. عندما ينتهيان يرتديان البرنسين، ويجلسان في الصالة سعيدين وكأنهما امتلكا فضاء حديقة. يعد كوبين من الشاي بالنعناع ويجلسان أمام التليفزيون، يتطلع كل منهما إلى الآخر مترقبًا حركة توسع مساحة عرّيه التي قد تكشف عن حاجة الأعضاء إلى جولة أخرى.

بعد الطفل الثاني، صار جسمها أكثر امتلاء، وظهر أثر جرح الولادة مع موجات بيضاء فوق البطن. ولم تكن وحدها التي تكبر، كانت عضلات بطنه تتراخى، وكان حريصًا على شفط بطنه ليخفي كرشه. حاول في البداية القضاء عليه، لكنه لم يستطع فصارت خطته المحافظة على حجمه. كان الآخرون حولهما يكبرون كذلك. وقياسًا على الأخريات من جيلها ظلت هي الأكثر تماسكًا، وظل يغار عليها.

مد يده يجذب الفانلة إلى أسفل كي يُخفي ما بين فخذيه، ثم قام إلى زر تشغيل مروحة السقف، وعاد إلى كرسيه، أخذ يتأمل تسارع المروحة، بينما بادرته بالسؤال:

ـ أرأيت أم العروس؟

ـ ما لها؟

ـ فستانها المحزَّق، ورقصها طوال الليل.

لم يعلق، وواصل التحديق إلى أعلى. لمح البقع المتقشرة في الكلس ووسخ الذباب في السقف وفوق بلتكانات الستائر وريشات المروحة وعمودها الحامل. عادت تسأل:

ـ أليست في سننا؟

ـ كيف في سننا؟! العروس ابنتها الكبرى، والعريس أصغر أبنائنا.

انتبه إلى العنف في صوته فاستحى أن تظنه مشتهيًا حماة ابنه. نظر في وجهها معتذرًا. هزت رأسها ولم تنبس. ظلت نظرته متشبثة بها، لمح الورم الذي يُضَخم كاحليها بما لا يتناسب مع حجم القدمين. غمره إحساس بالشفقة عليها. زحف حتى التصق بها. تمنى لو كان بمقدوره النزول وتقبيل ساقيها كما كان يفعل، لكنه اكتفى بالتلاصق، والتربيت على كاحلها بكعبه.

عندما زادت عليهما تكاليف الحياة، لم يكن يتصور أنها ستتحول بسهولة إلى أم مثل ملايين الأمهات اللائي ينذرن أنفسهن للأولاد. توقفت عن الإنفاق على زينتها، فرضت تقشفًا في الطعام ظهرت نتائجه على جسمها هي بالذات، ولم تعد ضرورات التعليم تترك فرصة للنزهة. أخذا يتداعيان دون أن تخلو عيونهما من بريق، لا ينبع من جسديهما المنطفئين، بل من قوائم نجاح الأولاد بالمدارس آخر كل عام.

واصلت الدهون تراكمها على جسمها، بينما اتجه جسمه إلى النحافة، وخرجت ترهلات بطنه عن السيطرة. وسّع الكرش فضاءه في قمصانه، وصارت مؤخرتها تترجرج تحت الملابس الفضفاضة، ومع ذلك ظلا يتدبران زيارات الرغبة المتباعدة في ظلام الغرفة محكمة الإغلاق.

منذ سنوات طويلة تباعدا تمامًا، لكنهما استطاعا أن يفعلاها احتفالًا بزواج الولدين الأول والثاني. كانا يعودان من الحفل بتصميم ساخر على محاكاة العروسين. في ليلة زفاف الثالث عادا متخاصمين، وفي اليوم التالي استأنفا حياتهما دون ضغينة. اعتصم كل منهما بالنصف الذي يخصه من السرير. ولم تعد تطلب منه أن يُغَمي عينيه عندما تغير ملابسها؛ صار حياديًا، تعبرها عيناه بينما يواصل هو الآخر خلع ملابسه دون أن يقطع حديثه حول مشكلة

قابلته في العمل أو الشارع.

وشيئًا فشيئًا صار يتخفى عند تغيير ملابسه، كان ينحني ملموما على نفسه، متحاشيًا ظهور مؤخرته في المرآة، بعد أن فقدت حشوتها الدهنية، وصار جلدها الرقيق مجعدًا مثل قشرة حبة خوخ ذابلة. توقع أن تتخفى مثله من تلقاء ذاتها دون أن يجرحها بإشاحة وجهه أو أن يضطر إلى الطلب الصريح. ولكنها ظلت تتعرى على سجيتها. تعود من حر الشارع لاهثة، تدخل إلى الغرفة، ترد الباب، تشعل النور، فينتبه إلى عودتها، وفي لحظة يسقط كل ما ترتديه على الأرض، تُخلِص قدميها، وتمضي إلى الدولاب، تلتقط عباءة منزلية وترتديها على اللحم، وتمضي إلى المطبخ.

كان الأولاد ينبهونها بدعابة، أو بإشاحة الوجوه في اتجاه آخر، لكنها كانت تعتقد أن ثديين يتدليان حتى السرة فقدا خصوصيتهما ومنحاها الحرية التي تمنتها طوال شبابها.

- صرنا وحدنا مرة أخرى.

قالت، عندما أطال التحديق فيها.

- نعم، عدنا اثنين كما بدأنا، لكننا الآن غير قابلين للزيادة.

قال، واستند براحته على فخذها، ونهض.

مد لها يده يساعدها على الوقوف، تساندا وسارا باتجاه الغرفة.

عتمة صباحية

خطا على أطراف أصابعه، وتوقف حابسًا نفسه بينما أرسل نظرة مائلة من تحت رموشه تسللت عبر الفرجة الصغيرة بين الستارة وزجاج الشبّاك. التقت نظرته بنظرة اليمامة المتظاهرة بالشرود. لابد أنها تنتظر هذا التلصص الصباحي، لأنها اختارت الرقود مولية وجهها نحو الداخل بحيث تمكنها مراقبته بيسر وطبيعية. لا يبدو في عينيها المفتوحتين أي اعتبار لنظرته، لا جفول المفاجأة، لا خجل الانكشاف، ولا فزع الخوف من الاعتداء.

- لا يمكنني رغم ذلك وصف نظرتها الثابتة بالوقاحة.

فَكّر، متعمدًا تحديها بنظراته. لم يكن في عينيها الكهرمانيتين

سوى فخر الأمومة ودلالها. وفي عينيه، لا شيء سوى الشرود والمراودة الصباحية، لنفسه وليس لها.

- اصبر، سيأتي يوم تتمكن فيه من جمع الستارة وفتح الشباك لينساب النور.

يقول مواسيًا نفسه، لكنه لا يعرف حقيقة إن كان يريد لهذه الأسرة أن ترحل، بعد أن اعتاد وجودها. سكون صباح الجمعة يضاعف هدوء المَنْور بين العمارتين المتقابلتين ظهرًا لظهر. اشتاق إلى الضوء القليل الذي يتيحه المنور الضيق في الصباح فيُعينه على مغادرة الفراش، لكنه لم يعد يستطيع فتح شباكه على مصراعيه. يواصل الامتثال للأمر الواقع، متحملًا العتمة حتى في النهار، يتأمل الأنثى الراقدة بغبطة، لكنه يشعر بالغيظ عندما لا يرى في عينيها أي أثر للامتنان.

- حقك!

خاطبها بصوت مسموع، بلا ضغينة. أحكم الستارة وانسحب إلى سريره، وأغلق عينيه محاولًا العودة إلى النوم. اليوم أو غدًا ستفقس البيضتان وسيكون قد وفى بوعد قطعه على نفسه.

منذ نحو أسبوعين، استيقظ أبكر من المعتاد على صوت خرخشة ارتطام متكرر في الطبقة الخشـــبية الموازية من الشباك. خاف أن تكون خرخشة ثعبان أو فأر يحاول التسلل إلى داخل الغرفة. أزاح الستارة فرأى من خلف طبقة الزجاج المغلقة ذكر يمام بري يحاول الهبوط وفي فمه قشـــة، عندما رآه الطائر عاود التحليق وحط على عتبة الشـــباك المواجه دون أن يفلت القشة من منقاره، بعد لحظات كانت أنثاه تقف بجواره، حجمها لا يتجاوز نصف حجمه. يتطلعان بقلق إلى أساســـات عشهما على عتبة الشباك. أخذ يتأملهما بتسامح غريب؛ فلطالما اعتبر الضجة التي تتســـبب في إيقاظه مبكرًا عملا من أعمال الحرب، إذ يظل طوال قبل الظهيرة مُصدعًا، ولا يتسامح مع من يبتســـر نومه إلا بعد قيلولة تزيل آثار العدوان. أزاح ضلفة الزجاج موسعًا الفتحة كي يمد يده ويقوض أساس العش، لكنه تراجع وأغلق الضلفة ونشر الســـتارة، كي يشعرا بالأمان. استأنف زوج اليمام بناء العش، اســـتغرق البناء أيامًا كان يستيقظ فيها على خبط الأجنحة، وارتطام جســـد إحداهما بالزجاج خلال حركة دورانها أثناء نســـج العش. وعندما وضعت الأنثى بيضتيها عاد الهدوء، لم يعد يسمع ســـوى الهديل، ورفيف الأجنحة في نوبات تغيير الرقاد على البيض بينهما. لكن هذه الأصوات الرهيفة كانت كافية لإيقاظه قبل الشمس. ولم يكن أمامه سوى التكيف مع الاستيقاظ قبل الشمس. يدخل إلى سريره في ساعة مبكرة من المساء، قضى الليالي الأولى

متقلبًا في الفراش. ليلـــة بعد أخرى نجح في النوم مبكرًا، لكن ذلك لم يخفف من التشوش الذي يسببه الاستيقاظ المبكر، ولم يتمكن من تقبُّل حالة اللايقظة واللانوم المضجرة التي تصبغ نهاراته. ما الذي أوقعه في فخ التسامح منذ البداية، عندما لم يكن العش مكتملًا وكان بوســـع اليمام أن يصنع عشًـــا بديلًا في مكان آخر؟ فضول طفولي بلا هدف؟ رغبة فـــي متابعة حياة تتقدم لحظة بلحظة تحت عينيه؟ انتظار خروج الفرخين والتقاط صورة "سيلفي" متفاخرة معهما؟

ـ انظروا، حتى اليمام يستأمنني على أفراخه!

ابتسم، للخاطر الذي استوحاه من إعلان قديم لبنك صممه مدير دعاية ذكي، كان عصفور قد بنى عشه فوق لافتة المدخل الرئيسي للبنك، منع المدير عمال النظافة من إزالة العش، وكلف مصورًا محترفًا بتصويره مع إظهار البيض داخله. كانت الكلمات القليلة الخالدة في تاريخ الإعلانات التجارية قد ولدت في رأس رجل الدعاية لحظة رؤيته العش: "حتى الطيور تأتمننا على بيضها"!

ـ لكنني لست بنكًا لأستفيد من دعاية كهذه.

قال لنفسه بينما أخذ يفتش في رأسه عن السبب الذي جعله يقرر استضافة زوج اليمام في نافذته، وحملته تأملاته إلى مزاج مختلف تمامًا، مستعيدًا هلع جوناثان نويل بطل باتريك زوسكيند في قصة

"الحمامة" عندما حدقت فيه بتحد أجبره على البقاء حبيس غرفته في النزل الفقير. أخذت الخواطر تتلاعب به وهي تتنقل بحرية داخل رأسه المُتعب نصف المستيقظ، افترّت شفتاه عن ابتسامة عندما تمكن من ربط ذعر بطل قصة خيالية بالذعر الحقيقي الذي سببته شائعة انطلقت مؤخرًا بتسلل حمامات تجسس إلى سماء البلاد. أخذت الشائعة الكثير من النقاشات وتسببت في انقسام رأي حاد في المقاهي والمواصلات العامة وأماكن العمل وفي سهرات العائلات بالمنازل، وأفردت لها الصحف والتليفزيونات مساحات واسعة.

- هل يكون هذا العش نقطة استطلاع متقدمة لأعدائي؟!

عبر التساؤل الساخر رأسه وأضحكه بصوت مسموع. غادر الفراش إلى الشباك مرة أخرى، رفع طرف الستارة بإصبعين ونظر إلى اليمامة مجددًا، لم تعره انتباهًا، كانت تراقب وليفها الذي يواصل التحليق والهبوط على العتبة المشمسة لشباك العمارة المواجهة. أي أعداء؟ وماذا يريدون معرفته؟! هذه مجرد غرفة نوم لا يحدث فيها إلا ما يحدث في غرف نوم الكهول العازبين؛ استلقاءة مجهدة على حافة السرير مع كتاب أو آيباد يقرأ فيه الصحف أو يدون شيئًا على حسابه في تويتر والفيسبوك، ويتلصص على ما يدونه الآخرون، يراجع بريده الذي لا يحمل أية مفاجآت.

- هذا كل شيء.

زفر بأسى، وابتسم مجددًا، لأن أفكاره كشفت له السبب الذي جعله يدع العش يكتمل في ذلك الصباح. في اللحظة التي كان يراقب فيها توتر زوج اليمام اكتشف أنه لا يفعل شيئًا مهمًا بالغرفة وليس لديه أدنى فضول لمعرفة شيء يحدث خارجها ويجعل فتح الشُبّاك ضروريًا. قرر ألا يزعجهما وأحس بالرضى عن ذاته، كان يعرف أنه بقراره هذا سيتحمل الظلام نحو شهر، بين وضع البيض وطيران الفراخ الوليدة. ربما أراد أن يثبت لنفسه، وليس لأي أحد آخر، أن ثمة ركنًا هادئًا في مدينة فقدت سكينتها، وأن هذا الركن في بيته هو بالذات؛ ركن لم يزل بعيدًا عن التفجيرات التي تقع هنا وهناك. والبرهان الناصع على ذلك هو زوج من اليمام البري المرتاب بطبعه يعيش في نافذته بأمان.

أحس بالنعاس فعاود الاستلقاء. بدأت الأشياء تختلط في رأسه، ذلك الاختلاط اللذيذ الذي يسبق الاستغراق في النوم. وعندما استيقظ، كان الضوء بالخارج أكثر وضوحًا. قام مجددًا إلى الشباك، تسللت نظرته فالتقت بنظرة اليمامة التي لامست بمنقارها الزجاج المغلق طلبًا للظل، بينما فاض جناحاها خارج العش، مفرودين تحت شمس الغروب اللطيفة. ثبّت نظرته عليها متعمدًا أن تستشعر وجوده، حدّقت فيه بثبات وسكينة الأنثى المتحققة في الحب.

مقعد في الحديقة

في المقعد الخلفي لتاكسي يقطع بهما الطريق من الفندق إلى المطار جلسا صامتين. اقتربت منه لتستكين في حضنه فتزحزح مبتعدًا بمقدار نصف المسافة التي زحفتها. لا يريد أن يغضبها أو يغضب السائق الذي يراقب في المرآة تلامس كتفيهما، ويتتبع تشابك أصابعهما.

ليس في تلصص السائق ذئبية المتحرش ولا زجر المتزمت، بل محض فضول. يحوم بعينيه في المرآة، وعندما تلتقي بعيني الكهل يخفضهما باستحياء ثم يرد بصره إلى الطريق أمامه، لكنه بعد لحظة يعاود استراق نظرة. فهمت الفتاة نوع الفضول الذي يحير السائق، فتولت بحسمها المعتاد توضيح الأمر؛ كي ينتبه إلى

الطريق ويتركهما وشأنهما. طوقت الكهل بذراعيها، ثم أدارت وجهه نحوها وطبعت على فمه قبلة.

اعتـــادا على فضول الآخرين عندما يرونهما معًا في أي مكان، وبينما يُفضـــل أن يتركهم يموتون بفضولهـــم، اعتمدت هي القبلة جوابًا شـــافيًا، وتبدو مســـتريحة إلى خيارها. فوق مقاعد الحدائق العامة تجلس علـــى ركبتيه، تعبث في شـــعره، تكمن في حضنه، وتخطف بوسة من خده أحيانًا. أشياء يمكن أن تفعلها فتاة مع أبيها. تراقـــب ردود فعله القلقة، وعندما تراه مســـتريحًا لأن الآخرين لا يزالون في منطقة الشـــك، تســـتدعي كل شـــغبها الطفولي، وتطبع قبلتها الحاســـمة. قبلة على الفم، وتراقب بشيطنة نظراته المتوددة للآخرين. يســـتجدي بعينيه تقبلهم: **"هذا يحـــدث أحيانًا، لابد أنكم شاهدتم ذلك في الأفلام"** عندما لا يكون هناك أحد غيرهما، يرسل بنظراته الشـــاردة إلى البعيد ليقنع ذاته: **"لم يكن فارق السن عقبة أبدًا في طريق الحب".**

مسح أثر القبلة بحركة متوترة من يده، وعاد إلى جلسته المتخشبة بجوارها، يراقب السائق متمنيًا أن تكون لحظة القبلة فاتته. التقت عيونهما مجددًا. كانت عينا السائق محايدتين تمامًا. أحس بالارتياح وأراد أن يعتذر لها عن جموده، فأراح ذراعه على كتفها. أزاحت

يده برفق، وهمست: **"ستنام جيدًا الليلة".**

وصله معنى التأنيب ففهم مرماها: **"ستستريح مني".**

- سأفتقدك، لا تحزني هكذا.

- "لا تقلق".

وجد في ردها غير المكترث إصرارًا على التأنيب. لم يجد ما يقوله، ضغط كفها، وراح يطوي أصابعها ويحتضنها في راحة يده، يفرد الأصابع ويتحسسها واحدًا فواحدًا. تركت يدها تتقبل اعتذاره. وشرعت لمسات أصابعه تزيل طبقة الغضب فطبقة الحزن حتى وصلت إلى طبقة الرضا التي عرفها في انحلال وليونة أصابعها. تحركت رغبته، فصار يضغط مشتهيًا. واصلت أصابعه عناق كفها ونظر في عينيها، فرأى كل الغبطة التي سهرا على إنجازها في الليلة الماضية.

قالت كي تنفي السعادة التي تكاثفت في عينيها:

- "بصدق، ستستريح، أنت تعبت".

- ما يتعبني تكرار الفراق، وليس وجودك.

أجابها بطلاقة وحرية دون أن يضع في حسبانه رقابة السائق الذي تطلع إليه. ورد على نظرة الرجل بتحد لم يترك له سوى

الاعتذار المبطن من خلال سؤال عن المسار الذي يفضلان أن يسلكه.

- طريقك، وأنت من يقرر.

أجاب الكهل بجمود، وزحف نحو الفتاة ملغيًا السنتيمترات التي تفصل بينهما. مررت ذراعها خلف رأسه وأمسكت بشحمة أذنه:

- لا أريد أن أرحل، سأبقى معك.

في الأفلام، ليس هناك سوى جواب واحد شاف على هذه الأمنية، جواب لا يوجه إليها، بل إلى السائق كي يلتف عائدًا. ثم يطلب منه التوقف أمام الحديقة المجاورة للفندق، حيث قضيا نصف الساعة الأخيرْ قبل الشروع في المغادرة. يترجلان. يجرجر عنها الحقيبة على الممشى الممهد بالحديقة، يعودان إلى المقعد ذاته ليمسحا عنه آثار الاستعجال، ثم يخرجان ليستأنفا حياتهما معًا. لكن الحياة ليست كالأفلام، لذلك لم يتهور الكهل بإعطاء أمر الالتفاف للسائق.

كررت رغبتها في البقاء. ولم يجد ما يقوله لها سوى تناول يدها والتربيت عليها بهشاشة العاجز.

عزيزنا الضيف

1

تقدم نحو موظفي الاستقبال. أبرز جواز سفره. لم يسترح إلى نظرة الاستطلاع التي بدت تحت ابتسامة ترحيب باردة رسمها الموظف على وجهه. تجاهل المجاملة وتشاغل بمراقبة حركة الداخلين والخارجين. ناوله الموظف مغلفًا صغيرًا بداخله بطاقة الباب.

- والباسبور؟

قال مادًا يده نحو الموظف.

- هل تحب أن نحتفظ به عندنا؟

قال الموظف دون أن يُحَوِل نظره عن شاشة الكمبيوتر.

- لا من فضلك، أنا لا أشعر بالاطمئنان إلا وجوازي بجيبي.

أخرج كلماته بكل ما استطاع من حزم.

- سيبقى عندنا، هذه هي التعليمات.

رد الموظف بحسم لم يترك له سوى الاستسلام. أومأ موافقًا ولمّ ذراعه الممدودة. مضى نحو صف المصاعد. لم يكد يقف بين المنتظرين حتى انتبه إلى صوت هرولة كعب أنثوي على رخام البهو.

- عفوًا، سيدي لقد وقع خطأ.

التفت إلى الصوت. وعاد خلفها. دارت وانتصبت وراء منصة الاستقبال، ووقف في مواجهتها، يُقلّب وجهه بينها وبين زميلها الذي أنهى له الإجراءات، عيناها البنيتان الواسعتان تختلفان عن عيني زميلها الضيقتين السوداوين، تظلل جفنيها الواسعين بأزرق يتناسب تمامًا مع لون الزي الرسمي الذي يرتديانه، لا يعرف إن كان الموظف جذابًا بالنسبة للنزيلات، لكن الموظفة كانت ستبدو جذابة بالنسبة له، لو لم تكن ترسم الابتسامة الرسمية والنظرة المداهنة نفسها التي لم يحبها من زميلها، دقق في ابتسامتها مجددًا، استرجع ابتسامة زميلها، لا يوجد أي اختلاف، لو كانت الابتسامة مجرد مهارة تجارية لاختلفت الابتسامتان في تفصيلة ولو صغيرة، لكنهما متطابقتان تمامًا وتخلوان من الأريحية المدعاة التي تصبح

كالطبيعية من كثرة الاعتياد. مسحة سخرية خفيفة لا تخطئها العين على الوجهين.

لم تبرح الابتسامة المستفزة وجه الموظفة، التي لم يعد يرى من عينيها سوى الجفنين الغارقين في الأزرق، بينما ترقن البيانات.

- أي خطأ؟ لا أفهم.

سأل، محاولًا خلخلة هدوئها.

- معذرة سيدي، اتصلوا أمس وطلبوا ترفيع حجزك إلى غرفة أفضل، لكننا نسينا.

واصلت الضرب على مفاتيح الكمبيوتر دون أن تتخلى عن ابتسامتها، مدت يدها؛ فناولها بطاقة الباب، وسلّمته الجديدة.

- إقامة ممتعة سيدي.

لم يرد، وانسحب نحو المصاعد مجددًا. أومأ له الحمّال بأنه سيتبعه بالحقيبة إلى الغرفة الجديدة. سار خطوات والتفت بشكل مباغت إلى الحمّال ليرى تعبيرات وجهه، لكن الرجل استدار لتحية نزيل جديد يتقدم من طاولة الاستقبال.

استأنف سيره، وانساب بين الداخلين إلى المصعد، ضغط رقم 21، عدّل من وقفته، انتبه إلى نظرة متفحصة مندهشة في عمق الجدار الصقيل، تطلع بابتسامة متحفظة فوسعت المرأة من

ابتسامتها. مع توقف المصعد بين طابق وآخر؛ أخذ الزخام يخف. وصار في مواجهة المرأة وحدهما. أومأت له بتحفظ، وفي عمق عينيها رأى نداءً عاتبًا. سرت قشعريرة رغبة في جسده، انقلبت فورًا إلى انتفاضة ريبة. أشاح بنظره نحو عدّاد الأدوار باللوحة المضيئة على جبهة المصعد مترقبًا الوصول. بين لحظة وأخرى يفاجئ المرأة بالنظر مباشرة في عينيها فتتصادم النظرتان، يدقق في الابتسامة فيلمح ظل سخرية مستفزة.

أخفض بصره، وتحجر في وقفته كصنم. لكن صوتًا في داخله كان يعَنفه على جبنه.

ـ هذه مجرد نزيلة مثلك.

قال محمسًا نفسه. باغتها بنظرة مقتحمة، لكن عينيه ارتدتا مخذولتين بغير قتال، لأن عيني المرأة كانتا مغلقتين. لم يعرف إن كانت تريحهما أم تفكر في شيء عميق يستوجب الإحساس بغيابه. عاد يحدق في جفنيها المسبلين الغارقين في الأزرق، لاحظ أنها لا تضع رموشًا صناعية كفتاة الاستقبال، وتبدو رموشها أضعف من المعتاد، بل غير مرئية، لكن حاجبيها كانا محددين بطريقة أنعم وأكثر إثارة. تقدم نحو الباب وهرول خارجًا لحظة توقُف المصعد في طابقه. خرجت المرأة في إثره تجر حقيبتها الصغيرة. اجتهد في إخفاء دهشته من توقفها في الطابق نفسه. أخرج المغلف ليقرأ رقم

غرفته الجديد الذي لم تتمكن ذاكرته من حفظه فوق الرقم الأول. استطلع الاتجاهات ومضى صوب الغرفة، منصتًا إلى وقع خطوها الذي أخذ يبتعد.

قرأ الرقم على كتف الباب، وقف يتأمل الممر الخالي.

تقدم، ومرر البطاقة على القفل فسمع تكة الفتح، أدار الأُكرة وخطا إلى الداخل. أحكم إغلاق الباب ووضع البطاقة في ميمنها فاشتعل ضوء مدخل الغرفة، وسمع هدير الهواء من فتحة التكييف. تصاعدت ضربات قلبه بينما يتقدم متمهلًا يستطلع الغرفة الفسيحة شبه المعتمة. وزع نظرات متعجلة على الزوايا، خلع الجاكيت وأراحه على طرف السرير. سقطت ومضات نور على وجهه كصفعات متتالية، تطلع إلى السقف الأملس يتأمل وميض جهاز إنذار الحريق جيدًا. أضاء نور الغرفة فغطى وميض الإنذار. أعاد تأمل السقف، انحدرت نظرته تمسح الجدران، دقق في الستائر، دار حول شاشة التليفزيون، رفع التليفون من فوق المنضدة وأداره بين يديه، أخذ في فحص الأباجورات واحدة فواحدة، يحركها، يضغط أزرارها ويتأملها عن قرب تحت أنوارها.

فتح خزانة الملابس بالممر فاشتعل ضوؤها، تأملها جيدًا. أعاد إغلاقها ودخل الحمّام، تأمل سقفه وجدرانه، رفع غطاء التويلت وفتح سوستة البنطلون، أمسك عضوه بيمينه وجعل من كف اليسرى

سقفًا يستره مثلما اعتاد أن يفعل في مبولة عامة. انتهى مدققًا في لون البول، ضغط زر الصرف، وانسحب إلى حوض الغسيل. فض غلاف الصابونة وغسل يديه، جففهما جيدًا بالمنشفة الناصعة، خرج وجلس بجوار الجاكيت على طرف السرير.

عاود التحديق فيما حوله، وشرع يستقطر الألفة من أصوات الممر؛ يحاول تحديد جنس الخطوة على الموكيت باذخ الخملات، ينصت إلى فرك العجلات والاصطكاك المعدني؛ فيميز حركة عربة النظافة من حركة تروللي الطعام الذي يستخدمونه لتوصيل الوجبات إلى الغرف، يجمع رذاذ الكلمات المختلطة مع أصدائها، يحاول تركيب جملة فلا يهتدي لمعنىً، كأنها لغة البدء، قبل أن تتشقق إلى ملايين اللغات واللهجات.

حل صمت في الممر؛ ففقد السلوى التي منحتها له لعبة التخمين. تصاعد توتره، وأحس برغبة في التبول مجددًا. قام إلى الحمام. فك حزام البنطلون ولم يتركه للسقوط الحر، أمسك بطرفيه وجلس قبل أن يكمل تعري منطقة الحوض، تطلع إلى السقف، ثم إلى فخذيه، جمعهما بحيث لا يبدو شيء من عريه، نفخ بطنه وأرخى مثانته، لم ينزل شيء، واصل جلوسه منظمًا تنفسه بعمق، انسابت منه قطرات من الماء. تطلع إلى السقف مجددًا وجمع طرفي البنطلون وشرع في رفعه قبل أن يغادر مقعد المرحاض، عندما استوت وقفته كان

قد أحكم ارتداء بنطلونه. لم تتلوث يداه، لكنه قطع الخطوة إلى المغسلة، اغتسل وعاد إلى جلسته على السرير. تطلع إلى الساعة حانقًا، لم يمض أكثر من خمس دقائق على وصوله الغرفة.

ـ لماذا أشعر بها كدهر؟!

فكر مندهشًا من الفرق بين إحساسه الثقيل بالوقت وبين المسافة الصغيرة التي قطعها عقرب الدقائق. استل محفظته من الجيب الخلفي للبنطلون، أخرج ورقة بخمس دولارات، وضعها في جيب القميص لتكون في متناول يده عندما يصل الحمّال. كان قد وضع ثلاثة دولارات مفردة بالجيب الأيمن لبنطلونه قبل أن يغادر بلده، كما اعتاد أن يفعل. يدفع بالدولار في كل أسفاره. وقد استقر على الاعتقاد بأن الدولارات الثلاثة بقشيش مناسب. ربما سيبدو سخيًا أكثر من اللازم في دول مقترًا قليلًا في أخرى، لكنه مقبول في كل الأحوال. اعتاد أن يضع الدولارات الثلاثة في جيب وحدها، حتى يخرجها اعتباطًا ويدسها سريعًا في يد الحمّال، فلا يمنحه فرصة لزيادة سقف توقعاته؛ فلو رأى يديه وهما تفتشان بين الأوراق الكبيرة في المحفظة لن تكون الدولارات الثلاثة مقنعة حتى في أفقر الدول.

هذه المرة ترك الثلاثة الفكة في مكانها وجهّز ورقة الدولارات الخمسة في الجيب الآخر، ورقة نظيفة مشدودة لم تستخدم من قبل.

لا يعرف لِمَ فعل ذلك، ربما يحاول شراء صداقة الحمّال بالدولارين الإضافيين، وربما كان تفكيره برفع البقشيش مجرد محاولة لتفريغ توتره بالانشغال في إحصاء النقد الذي يحمله والبحث عن خمس دولارات بين الأوراق.

سمع الصوت المكتوم لدهس عجلات على موكيت الطرقة، مضى إلى الباب، تطلع من الثقب وفتح للحمّال قبل أن يطرق. سد بذراعه طريقه وتناول منه الحقيبة، وطوى ورقة الدولارات في يده، وأعاد إحكام الباب. تنفس بعمق ورفع الحقيبة إلى المنضدة المخصصة لها في مواجهة الخزانة. خلّص قدميه من الحذاء وخطا حافيًا نحو السرير. خلع البنطلون ومسَّدَه بجوار الجاكيت، خلع القميص وتشمم الكُمين من تحت الإبط وأراحه بجوارهما. عاد إلى مدخل الغرفة ملمومًا يداري عريه. فتح الحقيبة أخرج كيس الأدوات الشخصية، استل شورتًا وفانلة ناصعة أنيقة، ارتداهما وبدأ في التحرك بتحفظ أقل، شرع في إفراغ ملابسه من الحقيبة. خطا نحو السرير، حمل البدلة وعلقها فوق الشمّاعات بالدولاب. أغلق الأنوار واندس تحت الغطاء.

لم تفلح لعبة التناوم في سحبه إلى نوم حقيقي. فتح عينيه في عتمة الغرفة، لم يكن سوى الصمت ووميض جهاز الإنذار في

السقف. أحس في صدره بآنية من الزجاج تتكسر. مد يده إلى زر النور، هدأ قليلًا. قام إلى الستارة جذب الحبل فأزاحها ونظر من خلف واجهة الزجاج، اكتشف أن غرفته ترى المدخل، شرع يتأمل الحركة. عمال الاستقبال ينحنون بالتحية للخارجين والداخلين، يهرعون إلى السيارات التي تتوقف، يفتحون الأبواب لركابها، يلتقطون حقائب النزلاء الجدد من صناديق السيارات ويتبعونهم إلى الداخل، دغدغت الشمس بشرته وأحس بالقلق يتبخر من بين مسام جلده، ونام.

2

أقام مرارًا في غرف بطوابق مرتفعة، لها واجهات زجاجية مشابهة تطل على بحار وأنهار وحدائق، اعتاد جمع الستائر والاستمتاع بعريه تحت الضوء المقتحم للواجهات الزجاجية، مطمئنًا إلى الفضاء الواسع أمامه. يتصرف بهدوء واثقًا من استحالة مراقبته إلا عبر منظار رؤية؛ وذلك احتمال نادر، يَعبرُ ذهنه فلا يقلقه، بل على العكس يستعذب إمكانية أن يشاطره شخص بعيد مجهول حفل تعارفه على جسده، مثلما يستعذب المسافر البوح بأسراره لرفيق رحلة قطار لن يراه ثانية.

يستلقي على السرير مستمتعًا بالأثر المدغدغ لتهاوش برودة التكييف مع دفء الشمس على بشرته، يتعرف على أعضائه المخفية في أيامه العادية تحت ثقل الملابس وكثرة المهام؛ يكتشف شامة جديدة هنا، تغيرًا في لون أخرى هناك، يمسح على بطنه ويقارنه

بآخر مرة تأمله فيها فيعرف أن عليه الحذر وتقليل حجم وجباته أو زيادة حركته، يمد يده متحسسًا شعر ما بين إليتيه وفوق العِجان، يحمل عضوه على راحة يده ينظر في عينه؛ فيرى في استكانته تحت الشمس المتسللة من الزجاج رضا الطفل الهني، يُقّلبه فيرى غلالة مترهلة تحت ذقنه تضفي عليه استسلام الشيخوخة، يفركه بأصابعه فيأخذ بالامتلاء، ويستجمع ذاته بتموجات ثعبان، يحتويه في راحة يده، ويمد إصبعًا يتلمس به كيس خصيتيه المتدلي، الآخذ في التماسك حتى يستدير كحويصلة ديك ممتلئة بالحَب.

لم يتخل عن عادة إزاحة الستائر في لحظة استيقاظه الأولى، لكنه لم ير في واجهة هذه الغرفة شاشة عرض بل بابًا للهروب، ومصدرًا للعون، يستجدي عينًا بعيدة تتلصص عليه، لا من أجل متعة البوح لغريب، بل طلبًا لشاهد.

- كثير من الجرائم يحل غموضها متلصص نبيل.

فكر، بينما يرتد عن الواجهة الزجاجية في هذا الصباح المشرق. وقف في منتصف الغرفة يتأملها.

- ليس الأمر بهذه الخطورة.

قال لتثبيت قلبه على حالة الهدوء التي هبّت على روحه كنسمة

لطيفة. تطلع إلى الساعة. اكتشف أن وقت الغداء قد بدأ. لا يشعر بالجوع، لكن فكرة النزول إلى المطعم جاءته كإلهام. تطلع إلى هندامه في المرآة. لا بأس، سأذهب هكذا. انتعل حذاءًا رياضيًا، سحب بطاقة الباب وخرج.

مضى يتطلع إلى أبواب الغرف في الممر الخالي، وصل إلى بهو المصاعد، ضغط زر النزول وأخذ يراقب واجهات الأبواب ليرى أي المصاعد أقرب إلى تلبية طلبه، هرول إلى الباب الذي انفتح، وابتلعه المصعد هابطًا إلى الطابق الأول.

عندما خطا خطوته الأولى في المطعم رأى المرأة التي التقى بها في المصعد يوم وصوله. تجلس إلى طاولة تستقبل الباب، أشرقت عيناها عندما رأته، كأنها كانت بانتظاره. تأملها بارتياح هذه المرة. حتى لو كانت هناك مراقبة في هذا الفضاء العام، فلن يعني تبادل النظرات شيئًا. الجميع يفعلون هذا. اختار طاولة صغيرة ترك عليها هاتفه وبطاقة الغرفة. مضى إلى طاولة العرض، وبدأ يتخير طعامه. بين الحين والحين يختلس نظرة إليها فتلتقي عيونهما. عاد إلى طاولته جلس بزاوية تتيح له رؤيتها. نظر إلى مفرق نهديها، أمالت رأسها تتأمل صدرها، ثم مدت نظرها نحوه.

ـ تلصصت على نهديّ، أليس كذلك؟

سألته ابتسامتها المتواطئة. وظهرت غمازة جميلة بخدها، شرع يتأملها بانتباه. تبدو خمسينية، لكنها رشيقة ومتماسكة تمامًا، عيناها ضيقتان حقًا، لكنهما أجمل مما رآهما في المصعد، الشعر أفحم، والبشرة حليبية؛ يمكن أن تكون من أي مكان معتدل الحرارة. حملته اقتحامات عينيها إلى تنكيس نظرته في طبقه.

ـ الخوف أول علامات الشيخوخة.

وبَّخ نفسه بصوت يكاد يكون مسموعًا. لكن ذلك لم يمنحه القوة بل المزيد من الاضطراب. تصاعد حنقه على نفسه فصار غضبًا تطلع به إلى المرأة؛ فأشاحت بنظرتها إلى اتجاه آخر.

في شبابه، لم يكن يعرف الحذر. لا يفرغ حقيبته في غرفة حتى تتأجج رغبته، ينطلق إلى مناطق الصيد. يبدأ بالمنطقة الأنعم، غرف التدليك وحمامات الساونا، بركة السباحة، ثم المطعم. اعتقد دائمًا أن طقوس النظافة توسع مسام الرغبة، وأن نساء تلك المنطقة المدللات مثل أسماك المياه العميقة؛ مزودات بخلايا ضوئية تكشفهن. من حركة العينين في محجريهما يستطيع التمييز بين المرأة التي تمضي إلى رجل ينتظرها وتلك التي تسعى إلى التعارف. في مرات نادرة كان يعود من ذلك المكان الدافئ وحيدًا، فيجرب الصيد في المناطق متوسطة العمق مثل بركة السباحة وغرفة الجيم، فإن

لم يستطع؛ يَقنَعُ بالصيد في المياه الآسنة. ولم يكن يخرج خائبًا من البار أبدًا.

سفراته مُرتبة بشكل دقيق في ذاكرته، حسب سرعة ومكان الصيد. في عديد من السفريات تلقى تدليكًا مجانيًا في ليلته الأولى، في بعضها وجد وليفة في اليوم الثاني، ثم تدهور الوضع، وانتظم سنوات على الصيد في الليلة الأخيرة، ودائمًا من فتيات البار. وعندما بدأ يدفع أموالًا، أيقن أنها النهاية.

كان يتقبل الانحدار برضى وتسامح، وعندما أشرف على الستين بدأ في التركيز على مهامه العملية في السفر، قانعًا من المتع بمتعة التعري منفردًا وإعادة التعارف مع جسده الذي كان ينشغل عنه بتأمل أجساد رفيقات الغرف المستعجلات.

بدأ يستطعم متعة الاستغناء وما تجلبه على روحه من سلام، ولم يعرف منذ سنوات الفضول الذي يتصرف به مع هذه المرأة، رغم حدسه بأنها تجره إلى خطر يشم رائحته منذ هبوطه من الطائرة.

ـ لماذا هنا بالذات؟

قال مؤنبًا نفسه. قامت المرأة وخطت باتجاه طاولة عرض الطعام،

وأخذت توزع نظراتها بين تلمس الطريق وبين التلصص عليه. حفّت به أثناء سيرها فهب عطرها وأصابه بالاضطراب، غرس عينيه في طبقه، تجاوزته، فأرخى نظرته تتأمل خطوها حتى توقفت أمام الطاولة. انحنت والتقطت طبقًا. دقق في مؤخرتها وساقيها، فتحول فضوله إلى رغبة بدأت تتحرك.

- صحوة الموت يا تُرى!

فكر بسخرية، بينما اعتدلت المرأة واستدارت نحوه جافلة كأنه قرصها. التفت عيناها بعينيه؛ فابتسمت وأسبلت جفنيها واستدارت بتأن. خطت تتأمل المعروضات، رفعت صوتها بالنداء على نادلة، بينما تناوشه نظرتها. تهرول النادلة نحوها، فتسألها بصوت مسموع تمامًا عن اسم حلوى، تنظر إلى النادلة بعين، وبالأخرى تراقبه. تعود بالطبق الصغير في يدها؛ فيغض بصره متظاهرًا بعدم الاهتمام، بينما يستعيد طريقتها في نطق الإنجليزية لكي يُخمّن موطنها؛ فلا يهتدي.

لم ترفع الشوكة إلى فمها مرة واحدة، واضح أنها كانت تريد أن تتمشى أمامه فحسب، لم تتخل عن البحلقة فيه، بينما تتقدم عيناه نحوها خطوة وتتقهقر خطوة. أنهى طبقه، ولم يشعر برغبة في تناول شيء آخر، دحرج نحوها ابتسامة؛ فمالت نحوه مبتسمة.

- ابتسامة أخرى ستأتي إلى طاولتي.

اهتز قلبه ببهجة الظفر للحظة، ولم تلبث فرحة الصياد أن انقلبت خوفًا، سمع ضربات قلبه تتصاعد. نهض وانصرف متداعيًا. أخذ شهيقًا عميقًا أمام المصعد، تلفت حوله ليتأكد أنها لا تتبعه.

خطا خطوته الأولى داخل الغرفة، وأحكم الباب سعيدًا بنجاته من ارتكاب حماقة. كانت العتمة قد حلت. لم يشعل الضوء، والتصق بالباب حابسًا أنفاسه يتطلع من الثقب، ظل الممر هادئًا لم ير فيه شبح إنسان. وضع البطاقة في الميمن فأضيئت الغرفة، شرع يتأمل الأشياء مجددًا.

- كيف لم ألاحظ هذا من قبل؟!

قال مندهشًا أمام الأشياء فوق الطاولة؛ ماكينة القهوة، غلاية الشاي، والصندوق الخشبي المليء بخراطيش بن وأكياس مشروبات متنوعة وأكياس سكر. قلّب في محتويات الصندوق، واستدار نحو الدولاب، فتح ضلفتيه مستطلعًا، كانت البدلات معلقة بالترتيب الذي يتذكره جيدًا، والقمصان مطوية على رفها كما تركها بالضبط. تقدم إلى الهاتف. ضغط رقم الاستقبال.

- هل من رسائل؟

سأل كالعادة، آملًا في جديد وقع أثناء غيابه عن الغرفة، لكنه تلقى الرد ذاته.

- لا شيء لدينا، يمكنك أن تتفقد جهاز الرد يا سيدي.

ضغط زر تشغيل الرد، خاطبه الجهاز بصوته الآلي المتقطع. لديكم.. عدد.. أحد عشر.. رسائل. للاستماع اضغط رقم ثلاثة.

- لا جديد؟!

مع ذلك شرع في الاستماع إلى الرسالة الأولى.

- هـــاي مامي. وصلت إلـــى نيويورك، ســـأحاول النوم قليلًا، طمنيني عنك.

الثانية:

- مامي؟ طمنيني بمجرد سماع هذه الرسالة. أحبك.

أخذ يرهف منتبهًا إلى تصاعد التوتر من رسالة إلى أخرى.

الثالثة:

- مامي، متى تعودين إلى غرفتك؟ بدأت أقلق بشانك جدًا، بليز مامي.

حـــاول تقدير عمر الأم التي ســـكنت الغرفـــة من صوت الابنة الثلاثينية القلقة، كي يستنتج نوع الخطر الذي يمكن أن تتعرض له النزيلة.

- مامي! الساعة عندك الآن الخامسة فجرًا، معقول؟ هل غادرت الغرفة في هذه الساعة؟

أرهف مجددًا للنبر. تأكد من هدوء صوت المرأة الشابة، مع غياب المرح الذي ينط من نبرات الرسالة الأولى. هل صادفت ردًا من أمها قبل هذه الرسالة فاطمأنت عليها؟

أصابه الوجل في ثواني الصمت التي تسبق الرسالة الخامسة، وانطلق الصوت الذكوري الواثق، الذي ينجح في إرهابه كل مرة، بينما يصدر تعليمات المقتضبة لساكن الغرفة.

- سيرسلون لك سيارة في التاسعة. الرجل الكبير ينتظرك. لا توافق على أي تغيير، اطلب مهلة للرد.

السادسة:

- هيييه؟ مقابلتك انتهت من ساعتين، لماذا لم تهاتفني؟

السابعة:

- بابا! وحشتني. أرجو أن تسأل عن بطارية لتليفون نوكيا، إذا لم يكن متعبًا لحضرتك، هي لفريد صديقي، هناك رقم مسلسل لكل طراز، سأرسل لك الرقم على محمولك. لا تشتري إلا إذا وجدت الرقم بالضبط.

الثامنة:

ـ بابا، وصلتك رسالتي؟ لا تتعب نفسك كثيرًا، فريد يقول إن الموديل صار نادرًا، لا تنسى الشيكولاتة المُرة.

التاسعة:

ـ هاي. لا تلعب بذيلك يا حبيبي، أراك. هي هيء، ابنك لا يكف عن رفسي، عندما أضعه سأتركه في رعايتك تسعة أشهر وأناااام، أحبك.

العاشرة:

ـ مساء الخير. أمورنا طيبة. الحمامة باضت خارج العش.

الحادية عشرة:

ـ السفينة جنحت. والمنارة آيلة للسقوط.

انتهت الرسائل، وكالعادة أحس بالإحباط. هل هو مجرد إهمال؟ لا رسائل، لا اعتذار عن عدم الاستقبال في المطار، لا زيارة تعارف، لا تحديد موعد. سرح في رسائل الآخرين، وبدأ يعيد التفكير في مضامينها.

ـ ما هذه الألغاز؟!

تساءل، فبدأ يسمع تكسير الآنية الزجاجية في صدره. أخذ

يضغط زر الاستماع مرة بعد أخرى، ينصت بتأن خال من صدمة المباغتة، يراقب الإشارات الخفية وراء الأصوات، يفرز صوت الثلاثينية المسرسع من الصوت الرجولي السلطوي الغليظ من صوت الغلام من الصوت الأجش لامرأة شرهة التدخين. شرع يبني من الرسائل حياة لكل مُخاطِب وحياة لكل مُخاطَب، يحاول أن يحدس كيف انتهت إقاماتهم في هذه الغرفة؛ يُسلي نفسه باختراع أقدار تلائم كل منهم.

الأم اختفت تحت الحصيرة الخرسانية لبرج سكني، ولم يتسن لها الاستماع إلى ابنتها التي سرعان ما توازنت وابتلعتها هموم الحياة في نيويورك. الأب لم يحمل الشيكولاتة إلى ابنه لأنه اختفى في سرداب مظلم. الزوج عاد إلى بلده، قدم براهين براءته، لكنه لم يتحمل أنانية زوجته، ووجد امرأة أخرى أقنعته بأنه يستحق التدليل، ومضى معها هربًا من مهمة تغيير حفاضات الوليد. تحير تمامًا في الحمامة التي باضت خارج العش والسفينة التي جنحت، لابد أن الساكن الأخير كان في وضع مطاردة لم تكتمل وعاد محبطًا، أو ربما ظهرت له السفينة، وفي لحظة فَرَحِهِ باقترابها تلقى منها زخة رصاص رصَّعت صدره.

ـ أي هذه المصائر سيكون لي؟

تساءل دون خوف؛ وكأن الأمر يتعلق بشخص آخر ممن سكنوا

الغرفـــة. لهفة انتظار رســـالة تحولت في هـــذه اللحظة إلى مجرد فضول، كأنه لا يريد أن يعرف محتواها إلا ليتمم سيرة الغرفة.

- إن لم تصلني رسالة، فلن أترك أثرًا يشوش ساكن هذه الغرفة من بعدي.

قال، وقام يعبث في أوراقه، وجد اسم ورقم تليفون موظف العلاقات العامة الذي كان قد وعد بانتظاره في المطار ولم يفعل. أدار الرقم من تليفون الغرفة، رد صوت طفل، لم يفهم منه شيئًا. وضع السماعة وجلس على حرف السرير. أخذ يتأمل صورته في المرآة، ليرى إن كان ثمة قلق يبدو على ملامحه. أحس بالغازات تملأ بطنه وتضغط من أجل الخروج. بدأ بتسريبها شيئًا فشيئًا، حتى لا تصنع جلبة.

- لن يروا إصبعي في أنفي، أو يروني أعبث بأعضائي، ولن يسمعوني أتجشأ أو أضرط.

قال مصممًا، وأخذ يتلفت مجددًا، يتأمل السقف ويستطلع زوايا الغرفة. مد يده مطفئًا الأنوار. تسللت أضواء الخارج خافتة، بينما بدأ يتفزز تحت ومضات جهاز الإنذار بالسقف.

3

أحس برنين التليفون خافتًا بعيدًا كحلم، تجاهله وواصل نومه، لكن جهاز تسجيل الرسائل انفتح، فنبهه.

ـ مرحبًا بك ضيفنا العزيز، كيف كان نومك؟

صوت قاطع، جعل السؤال أقرب للاستجواب منه إلى المجاملة.

مد يده إلى السماعة، سقطت منه على الأرض، استعادها في لهفة، وبدأ في الرد على المتصل، لكن الرجل استمر في إبلاغ رسالته للمسجل كأنه لا يسمعه. انتهت الرسالة وبدأ الصفير على الجهة الأخرى من الخط. وضع السماعة دون أن ينقطع صفيرها الموحش. مد يده وأحكم وضعها فانقطع الصوت. أعاد إغماض عينيه محاولًا استعادة الرسالة. لم يقل الصوت أي شيء عن اللقاء، كل ما هنالك أن الفندق لديه تعليمات لتلبية كل طلباته.

فتح عينيه، نظر في ساعته. كانت قد تجاوزت العاشرة. لا يعرف كيف واصل نومًا مصمتًا كجدار، رغم أن الضوء يغمر الغرفة. انتبه إلى أن الشمس تسقط مباشرة على وجهه. كيف لم توقظه، هو الذي يستيقظ في بيته إذا تسربت من شق الباب إشارة على إشعال نور الممر.

- كم أتعبتُها!

قال متذكرًا مطلقته التي انفصل عنها منذ عشرين عامًا، عبر روحه حنين عذب سرعان ما زال مثل رائحة ياسمين حملتها هبّة ريح ساخنة وطوحتها بعيدًا. أغمض عينيه وملأ رئتيه بالهواء محاولًا فرز الرائحة اللطيفة من الهواء المثقل بالرطوبة، خنقته رائحة ثقيلة كرائحة عطر دهن العود المختلط بالعرق في نهار قائظ. زفر فلم يخرج من صدره سوى إحساس بالذنب أثقل تنفسه، عاود ملء صدره بالهواء منتبهًا إلى شهيقه وزفيره مرارًا. كم عذّب هذه المرأة بنومه الخفيف. كانت تضطر إلى المشي على أطراف أصابعها وارتداء ملابسها في الممر دون إشعال الضوء، وكثيرًا ما كانت تكتشف في نور الشارع أن مكياجها مضحك، أو أنها ارتدت البلوزة مقلوبة، أو انتعلت فردتين من حذائين مختلفين.

لم يفهم أحد سبب طلاقهما، لأنهما لم يجرؤا على إخبار أحد بهذا السبب المضحك. احترم الآخرون صمتهما سنوات طويلة، وبعد أن استشعر القريبون منهما أن جرحهما لم يعد يؤلم بدأوا في توجيه الأسئلة. ردودها عليهم كانت تجد طريقها لمسامعه. لم تحاول الإساءة إليه واكتفت بكلمة واحدة: "النصيب"

ويبدو أنهم ـ من باب اللياقة ـ توقفوا عن سؤالها بعد أن تزوجت؛ فلم تعد تأتيه أية أخبار من ناحيتها، أما هو فبدأ يُحمّل نفسه مسئولية فشلهما، ربما بدافع الكرم أو ربما بأنانية ترسم له صورة المتفوق، كان يُلمّح إلى علاقاته المتعددة ويوحي بأن ذلك هو السبب الذي لم يعلناه. وبعد أن كرر ذلك التبرير كثيرًا بدأ يتساءل بينه وبين نفسه: لماذا لا تكون هي الأخرى قد خانتني؟! لماذا أستبعد هذا الاحتمال بكل غطرسة؟! لماذا لا تكون الخيانات المتبادلة هي السبب الحقيقي الذي لم يبح به أي منا حتى لنفسه؟!

زحف باتجاه رأس السرير، حشا الوسائد خلف ظهره، وأخذ يختبر قدرة عينيه على النظر مباشرة نحو الشمس. هبت نسمة الياسمين مجددًا حتى تلفتَ حوله ليرى إن كانت هناك ياسمينة حقيقية في الغرفة. غادر السرير، تأمل نفسه في المرآة، أحس بارتياح للحيوية التي عادت إلى وجهه، مضى إلى طقوسه حافيًا

مســتمتعًا بمخمل الموكيت تحت قدميه. وسّــع خطوته في مدخل الحمام ليقف فوق المنشفة حتى لا يلمس برودة الأرضية الرخام.

- لتكن بهجة.

قال لنفسه في المرآة التي بدا فيها أكثر شبابًا وحيوية مما بدا في مرآة الغرفة. كان قد قرأ مرارًا في كتب التنمية الذاتية التي يعشقها أن الحزن قرار والفرح قرار. وبدأ يلعب هذه اللعبة مع نفسه باستمتاع. يقع في المشكلة؛ فيتذكر المقولة، ويتخذ قراره بالبهجة فيبتهج.

- لتكن بهجة.

كررها ضاغطًا على الحروف مركزًا عينيه في عيني صورته في المرآة. وبدأ يضع الخطط ليوم مبهج. لن يستعجل الأحداث، حسبه أن يدرك أنه يقيم في غرفة فخمة، وبوسعه أن يستمتع بالكسل فيها أو بالتسكع في جنبات الفندق، كما يستطيع أن يطلب سيارة للتسوق والتعرف على المدينة.

غسل أسنانه، وأجرى يده على ذقنه فلم يجد حاجة إلى الحلاقة،

اتجه إلى قاعدة المرحاض؛ فعاد حذره دفعة واحدة. جلس ملمومًا مسيطرًا على جسده، وقام إلى المغسلة، غسل يديه، واستدار متطلعًا إلى البانيو. لا شيء يستطيع أن يسحبه إلى البهجة الآن مثل الغوص في الماء الساخن تحت طبقة من الرغوة العطرة، بلا مواعيد تضع حدًا لاسترخائه. غادر الحمّام. أضاء زر "ممنوع الإزعاج" بجوار الباب وعاد مطمئنًا إلى أن أحدًا من خدمة التنظيف لن يقتحم عليه الغرفة.

أغلق فتحة صرف البانيو بالسدّادة وفتح الماء حتى غمر القاع، مسح البانيو بيده ورفع السدادة لتسريب ماء الغسيل، ثم أعادها إلى مكانها، وعاود فتح الصنبور ضابطًا الحرارة على الحد الأقصى الذي تطيقه يده. أخذ يراقب ارتفاع الماء، يستطلع زوايا الحمام رغمًا عنه، فيسارع إلى غض بصره حتى لا يهدد اتفاق البهجة الهش مع نفسه.

ـ ماذا يستفيدون من عري رجل منفرد؟

قال، بينما شرع في خلع ملابسه، وقف معتدل القامة يتأمل جسده، شفط مشروع الكرش الذي بدا واضحًا في المرآة، مد قامته، محاولًا الظهور بعري حسن. رفع قدمه الأولى ووضعها في البانيو، ثم دخل بالثانية واستلقى يتأمل تموجات جسمه تحت الماء الصافي. بدأ في إفراغ القنينة، مع توجيه صفعات لسطح

الماء تحفيزًا للرغوة، حتى اختفى جسده تمامًا تحت الكثبان الهشة البيضاء المتموجة.

أراح رأسه على حافة البانيو واسترخى، يتأمل هطول الماء وارتفاع مستواه فوق جسمه المنساب بارتياح. قبل أن يصل الماء إلى الحافة، أغلق مفتاح البارد وترك خريرًا بسيطًا للماء الساخن حتى يحافظ على حرارة البانيو.

أخذت المخاوف تتسلل إليه؛ فيقبض عضلات رأسه كي يحافظ على اتفاق البهجة الذي عقده بينه وبين نفسه. هل يمكن فعلًا التحكم بتلك الكتلة الهلامية الهشة داخل الجمجمة مثلما نتحكم في المثانة؟ يعاود القبض فيشعر بالطنين في أذنيه والحركة في عضلات القفا. استهوته التجربة، ونجحت لعبة مراقبة حركاته العضلية وأثرها في صرفه عن التفكير، كان وشيش الماء يعزل الحمام عن الأصوات بالخارج. سحبه دفء الماء إلى النوم، حتى أيقظه ضغط مثانته.

خرج من الحمام جائعًا، فكر في طلب إفطاره، لكن وقت الغداء صار قريبًا. قرر أن يشرب قهوة حتى يكتمل جفاف شعره ثم ينزل لتناول الغداء في المطعم.

4

مد قدمًا إلى داخل الغرفة وأشعل الضوء قبل أن يكمل دخوله مثلما اعتاد أن يفعل عند عودته من البار في جوف الليل. وقعت نظرته على مظروف تحت الباب. أحس بطعنة خوف، وسرعان ما تماسك وأخذ خوفه يتحول إلى فضول.

أزاح المظروف بقدمه وتبعه إلى الداخل وأغلق الباب. وقف ساكنًا منتشيًا بخفة الشراب مسلطًا نظره على المظروف، كأنه يوبخ المرسل، تخطاه إلى الحمام. بال واقفًا بكل استهتار دون أن يغسل يديه أو يمسحهما، وعاد يرمق المظروف مستمتعًا بلعبة التوقعات.

- ربما كانت رسالة تأنيب بسبب سهوي عن موعد اللقاء؟!

تساءل وابتسم سخرية من نفسه، هم لم يحددوا موعدًا أصلًا.

فكر في احتمال أن تكون رسالة من العمل أو ربما من أمه. ثم ارتد إلى سقف توقعات منخفض.

- قد تكون إخطارًا بالموعد.

تزايدت الاحتمالات وبدأ الفضول يتصاعد، حتى صار قلقًا. انحنى والتقط المغلف، فتحه. وجدها رسالة من خدمة الغرف. "عزيزنا الضيف، لقد تركت علامة (ممنوع الإزعاج) مضاءة ولهذا لم نتمكن من تنظيف الغرفة، برجاء التأكد من إطفاء العلامة عند خروجك حتى نتمكن من تقديم الخدمة اللائقة بكم"

- كلاب.

قال ضاغطًا على الحروف بكل ما أحسه من خذلان، طواها في مغلفها ومضى نحو السرير. وضع المغلف على الكوميدينو بجواره وحاول الاسترخاء، دوّمت الرسالة في رأسه مثل سِرب خفافيش. عاود قراءتها، محاولًا اكتشاف ما قد تنطوي عليه من إشارات لم تقلها الكلمات صراحة. انتبه إلى كلمة "تَرْكت" لماذا لم يكتبوا ما يقصدون بصراحة "إنك لم تغادر الغرفة حتى المساء"؟ هل يريدون إيهامه بأنهم لا يترصدون حركته؟ يدّعون أن استلقاءه الآن على سريره ليس تحت عيونهم؟ إذا كانت نظافة الغرفة غاية همهم؛ فلماذا لا يكتبون مواعيد التنظيف الممكنة ويطلبون منه تحديد الوقت الذي يناسبه؟! ما الداعي لهذه الإضافة السمجة؟ "برجاء التأكد" هل هو

رجاء حقًا؟ وإذا لم يلتزم، هل يحترمون رغبته في الإقامة بغرفة غير مرتبة أم يُصعّدون لهجتهم ويبرزوا التعليمات صريحة، مثلما فعل موظف الاستقبال؟

أخذت الأسئلة تتسرب بانتظام إلى رأسه مثل حبيبات تنساب داخل ساعة رملية، وتتكدس في نصفها الأسفل فيقلبها على الجهة الأخرى ليبدأ تتابع الأسئلة مجددًا. أثقله تقليب الاحتمالات. وأخذ الخوف يتمدد ويفيض من رأسه إلى أطرافه ويبدد أثر الكحول في جسده.

تذكر أنه لم يضغط زر الاستماع إلى رسائل التليفون، كما يفعل كلما عاد إلى الغرفة. ضغط الزر فانطلق الصوت المعدني. "لا رسائل جديدة، إذا رغبت في الاستماع إلى القديمة اضغط واحد" ضغط وأخذ يستمع إلى الرسائل الإحدى عشرة التي يحفظ كل حرف فيها، كل تنهيدة، كل نبرة تردد في الصوت كل اختلاجة قلق. أوقف التسجيل في منتصف الرسالة السابعة.

- ألم يكن بوسعي تفادي هذه الرحلة؟

فكر؛ كونه الأعزب الوحيد بين زملائه لا يعني ضياع فرصته

في تقديم أعذار لإعفائه من هذه المهمة. مرض الأم حجة أقوى من التعلل بمرض الزوجة، فحوص طبية لنفسه سبب مقنع آخر في هذه السن، على الرغم من أن ملفه الطبي لا يشير إلى وجود أمراض مزمنة. كان بوسعه حتى التعلل بأن هذا ليس دوره في السفر، لكنه قَبِل. لم يقبل فحسب؛ كان سعيدًا، وانخرط في ترتيب الإجراءات، كما لو كان ذاهبًا إلى نزهة.

الموتى يذهبون ولا يعودون ليحكوا كيف كانوا يشعرون في أوقاتهم الأخيرة، هذه مهمة من يبقى بعدهم ليضفي عليهم لحظة موتهم هالة لم تكن لهم طوال حيواتهم البليدة. يعيد الأحياء دون كلل الكلمات الأخيرة التي قالها الموشك على الموت: "تذكري ما تريدين، فلن أخرج مرة أخرى" العبارة العادية جدًا التي رددها طوال حياته الزوجية زوج ضجر من زوجته التي لا تتذكر نواقص البيت إلا بعد عودته من البقالة، تصبح في المرة الأخيرة نبوءة بالموت قالها المرحوم قبل أن يركب السيارة ويقع له الحادث المشئوم، مكالمتان هاتفيتان أجراهما لصديقين لضرورة عملية تتكاثران عبر الحكايات وتتحولان إلى جولة هاتفية ودع فيها كل معارفه؛ لأنه كان شفافًا وأدرك النهاية!

ـ من، سيقول عني ماذا، إذا مت في هذه الغرفة؟

استبعد أن يتحدث عنه زملاء العمل أو يبدر من أحدهم أكثر

من مصمصة شفاه تعاطفًا أو استغرابًا. هذا لا يعني أن الوقت الذي أمضاه هنا طويل إلى الحد الذي يتكفل بنسيانه، لكنه طوال خدمته لم يقترب من أحدهم، ولم يدع أحدًا يعرف حقيقة مشاعره قط، عاش بينهم عمرًا بلا صديق. هذه ليست مجرد توهمات في لحظة خوف بغرفة موحشة. هي حقيقة وضعه الذي اختاره بقرار اتخذه بلا رجعة عندما كان شابًا غضًا، وكان الموت بكامل هيبته.

بعد أشهر قليلة من التحاقه بالعمل، كان يستعد مع الزملاء لتناول الغداء الذي طلبوه من مطعم قريب، وفجأة انكفأ أحد الموظفين القدامى ميتًا، جمعوا مكتبين ومددوه فوقهما، وعمَ الحزن الجميع. الشباب سالت دموعهم، بعضهم نهنهوا بأصوات مسموعة، الكهول تندت عيونهم، الأقرب إلى الشيخوخة تقطبت وجوههم. وبعد دقائق بدأوا في اختلاس النظرات إلى الكيس البلاستيكي الضخم على طاولة الاجتماعات، ثم رفع أحدهم ذراعه وأخذ يؤشر لهم كي يتجهوا إلى الطاولة.

- "الكباب سيبرد".

قال الرجل، وبادر إلى الجلوس. أخرج الوجبات من الكيس، فض غلاف واحدة، وبدأ في الأكل بنهم كأنه لم يأكل من قبل. تبعه الآخرون متسللين إلى المائدة واحدًا فواحدًا. المذهل أن الرجل الذي

استبق الجميع كان الأقرب إلى الميت. عِشْرة عمر، كما يقولون. مات هو الآخر بعد ذلك بسنوات، لكنه يتذكره الآن؛ بدمعه الذي بلل عينيه وأسال عماصهما وطرده إلى الوجنتين في الدقيقة الأولى لموت زميله. يتذكر انفراج ملامحه وتحلب لعابه بينما يفض ورق الألمونيوم المغلف لوجبته، يتذكر حركة فكيه إذ يطحنان سريعًا، بينما يتلفت مثل كلب قلق على وليمة اكتشفها وحده.

منذ تلك الواقعة، حرص على إغلاق قلبه دون صداقات العمل. يلتحق بالمكتب موظفٌ جديد، يتيقن من نقائه، وعندما يرى إمكانية قيام صداقة بينهما، يصيبه الخوف ويبدأ بالهروب، مرددًا لنفسه الجملة التي لن ينساها أبدًا: "الكباب سيبرد"

5

قبل أن ينتبه إلى جلبة الباب، وجد امرأة فوق رأسه.

- عفوًا سيدي، هل أنت بخير؟ اضطررنا لاستخدام المفتاح الأساسي لأن علامة عدم الإزعاج لم تُرفع منذ أيام.

تدافعت كلمات الاعتذار من فمها، ودون أن تنتظر ردًا تقهقرت وجذبت الباب خلفها. أخذ يجهد ذهنه ليستوعب المكان، وجعلته صفقة الباب ينتبه إلى وجوده، تعرف على تفاصيل الغرفة التي يحفظها عن ظهر قلب، لكنه لم يتمكن من تذكر أي شيء من الموجودات خارجها؛ كأنها صندوق معلق على هذا الارتفاع الشاهق.

غادر السرير، وأخذته قدماه آليًا إلى الواجهة، تأمل المشهد بالخارج، لمس الزجاج الملتهب، فتذكر ما كان أصدقاؤه يقولونه

عن صيف هذه البلاد ولم يكن يصدقه. استغرب الحر الذي يكاد يسمع وشيشه على سطح الزجاج من الخارج، رغم عدم سطوع الشمس. كان الأفق مضببًا بما يشبه الغبار الذري. استدعى المشهد إلى ذاكرته صورة تفاعلات قلب الشمس؛ فتصور غرفته كبسولة وسط التقلبات الجبارة لغازات النجم.

سحب نفسه إلى الحمّام، تخلص من ملابسه دفعة واحدة، وقف يتأمل جسمه في المرآة، لم يعد يستطيع السيطرة على عضلات بطنه المترهلة، شد قامته ليرى إن كان بمقدوره التخلص من الانحناء الذي وسم قامته بفعل العادة.

منذ وصوله كان يتحرك محنيًا، يمشي بالقرب من الجدران في ممرات الفندق وقاعات الطعام وحتى في البار المظلم، ولم ينجح الانحناء في إخفائه بالكامل؛ فتوقف عن استخدام العطر، وكلما مضى الوقت كانت مخاوفه تتزايد فأصبح لا يغادر غرفته إلا بعد أن يتأكد أن رائحته محايدة تمامًا، لا أثر لرائحة شامبو أو صابون، ولا رائحة العرق بالطبع.

- استعادة الرائحة سهلة!

قال بأسى، بينما يستشعر ألم محاولة فرْدْ ظهره. التقط فرشاة الأسنان، شطفها بالماء قبل أن يجلل شعيراتها بالمعجون، بدأ في

تنظيف أسنانه متابعًا حركة الفرشاة في جوانب فمه. بعد أن انتهى، جلس على قاعدة المرحاض مستمتعًا بالانسياب اللذيذ لفضلاته، قام يتأمل ما فعل قبل أن يضغط زر الصرف وينطلق إلى البانيو. فتح الماء موازنًا درجة الحرارة ووقف تحت الدوش. مع أسواط الماء التي انهالت عليه أخذ باستعادة وعيه وحذره.

ـ ما الذي حدث؟

أحس بهبوط في قلبه كأن مصعدًا معطوبًا يهوي به. بدأ يتأمل سقف الحمّام من خلف الماء ورغاوي الشامبو. أسرع في إنهاء استحمامه. جفف نفسه والتف جيدًا بالمنشفة الكبيرة باذخة الخملات. مضى إلى الخزانة، ارتدى الروب الناصع، وأحس حرارة الرغبة تجري في عروقه، تذكر المرأة التي فتح عينيه على وجودها. حاول أن يستجمع ملامحها التي لم يتبينها لحظة المباغتة فلم يستطع. أخذ ينظر من ثقب الباب.

ـ هل يمكن أن تعود؟

عبر السؤال رأسه فتزايدت تطلعات جسده. أخذ يفكر بالمرأة، باقتحامها الغريب للغرفة وانسحابها المرتبك.

ـ كلب!

قال معجبًا بعضوه الذي أخذ يتصلب غير آبه لحيرته. وابتسم عندما انتبه إلى أن صفة الكلب التي أضفاها عليه ليست بغير أساس؛ فالكلاب تنبح عندما تشم رائحة الخوف. وفتاة التنظيف كانت خائفة أو على الأقل مرتبكة وتشعر أنها الأدنى، لذلك نبح عليها، بينما لم يعهد فيه هذه الصلابة في مواجهة النساء المقتحمات في المصاعد والممرات والمطعم، لم يشعر بها تحت يد المدلكة، ولا في مواجهة نساء البار الثملات.

رمح بخياله حتى اللهاث يحاول تجميع ملامح العاملة. من طول قامتها ونحافتها بدأ يرسم في خياله ملامح أجمل امرأة في الكون، تمنى أن تعاود الدخول بأية حجة كانت. وفجأة ضربته عاصفة الخوف.

- ستكون هذه غلطتك التي ينتظرونها يا ذكي!

قال كابحًا استرسال رغباته. وتمنى ألا تعود فيجد نفسه في تجربة كتلك. وبدأ الهمود اللذيذ يتسرب إلى جسده. مضى نحو السرير، جرب الاستلقاء في الروب. يحب هذا التكاسل عقب طقوس النظافة الصباحية، يشعر بأنه ملك على عرش مملكة وقته الشاسعة، يغفو قليلًا ويقوم مسرورًا.

انحســـر الروب إلى الجانبين تاركًا فرجة كشـــفت ساقيه حتى التقائهما. دون أن يلمس عضوه خمّن من النشوة التي يحسها أنه لم يزل عفيّا، ســـاكنًا، ممتلئًا ورخوًا كثعبان، لا غائصًا في كهفه ولا متصلبًا.

ـ سيرون ما يسرهم!

قال مبتسمًا، مشجعًا نفسه، كي يُبقي على عُريّه. استطلع السقف ثم تحول بنظرته إلى الأفق الذي ازداد تضببًا فلم ير أبعد من أمتار قليلة وراء الزجاج. أخذته سنة من النوم، أخرجته منها لسعة برد الهواء المكيف. جمع طرفي الروب واعتدل. دار في الغرفة وانتهى إلى الواجهة الزجاجية. صارت الرؤية أفضل، حتى أنه رأى السماء زرقاء واضحة، ورأى سرب طيور رمادية محدود العدد يدّوم، أخذ يبتعد حتى بدا كذبابات كبيرة ثم اختفى فعادت للسماء زرقتها النقية.

ـ لن أتجمد رعبًا هنا.

ابتهج للفكرة التي انفتحت في عقله كطاقة نور. مضى واثقًا نحو مدخل الغرفة. فتح الحقيبة فوق مقعدها، وفتح باب الخزانة، جنّب طاقمًا ليرتديه، وأخذ ينزع بقية الملابس من فوق الشمّاعات ويدفع بها إلى الحقيبة حتى فاضت، كبسها جيدًا وأغلقها. نزع الروب

وكوره ودفع به إلى الدولاب. ارتدى ملابسه، وانتعل حذاءه كيفما اتفق، ومضى إلى التليفون. تردد في مد يده إلى السمّاعة.

- إذا كانت السعادة قرارًا، فالشجاعة قرار أيضًا.

قال مشجعًا نفسه، والتقط السماعة مديرًا رقم الاستقبال.

- من فضلك، أريد أن أغادر الآن.

- حاضر سيدي، خمس دقائق سيكون الحمّال على الباب.

لم يقو على نطق كلمة شكر للموظف، سقطت السماعة من يده. أحكم وضعها في مكانها، وجلس هامدًا على طرف السرير.

- هل يمكن أن أغادر بهذه السهولة؟

بدأ يستمع إلى صوت تكسير آنية الزجاج في قلبه، قام يدور في الغرفة، ينظر هنا وهناك ليتأكد أنه لم ينس أيًا من أشيائه، جهّز ورقة بعشرة دولارات وضعها في جيب قميصه، أحس برغبة في التبول، رن جرس الباب، فانطلق نحوه. وارب الباب دون أن يُفلت سلسلة الأمان. دقق في الظل الواقف بعتمة الممر، كان الحمّال. رفع السلسلة، ووضع الدولارات العشرة في يد الرجل وبالأخرى سلمه الحقيبة، وأغلق الباب متنفسًا بعمق.

دخل إلى الحمّام، جلس على قاعدة المرحاض. وعندما انتهى، دار في الغرفة دورة أخيرة. استرق نظرة نحو السقف، وخطا خارجًا، سار قريبًا من الجدار، يرمق أبواب الغرف المغلقة على جانبي الممر. بضغطة إصبع انفتح باب المصعد.

البهو هادئ. تقدم محنيًا وهشًا نحو طاولة الاستقبال، أومأ له الموظف بابتسامة باهتة، وانشغل بالضرب على مفاتيح الكمبيوتر. طبع له الفاتورة، وضعها في مظروف مع جواز السفر.

- ألا توجد أية التزامات؟

قالها بصوت كاد هو نفسه ألا يسمعه.

- لا شيء. إقامتك مسددة بالكامل. رحلة سعيدة سيدي.

قال الموظف، ورسم على وجهه ابتسامة، ولوّح له بيده تلويحة وداع مقتضبة.

بين «حدث في بلاد التراب والطين، 1992» المجموعة القصصية الأولى لعزت القمحاوي، وبين هذه المجموعة الجديدة جرت مياه كثيرة في هذا النهر. تعددت التجارب في القصة والرواية والمقالة والنص المفتوح، دون أن تكرر تجربة سابقتها، ولكن يمكننا أن نلمح قواسم مشتركة صارت تميز كتابة القمحاوي: الموت، الاغتراب، القهر، والذاكرة. هذه الموضوعات تتجمع كلها لتصنع احتفالاً بالحياة، ينبه الإنسان إلى ضرورة الاستمتاع بحياته القصيرة على الأرض قبل أن يجد نفسه وحيدًا غريبًا عليلاً.

والحفاوة بالجسد وتفاصيله هي طريقة عزت القمحاوي لقول هذا. يظهر الجسد بخفوت في «حدث في بلاد التراب والطين» و«الحارس» أو بتأمل وتفكير في «الأيك» و«كتاب الغواية» أو بصخب وعنف في «مدينة اللذة» أو باحتفال في «مواقيت البهجة» و«بيت الديب» أو بأسى في «غرفة ترى النيل» و«البحر خلف الستائر».

وفي قصص «السماء على نحو وشيك» نجد ملامح من الموتِ ورثاء الذاكرة ورثاء الجسد الشائخ، كما نلمس الحفاوة بالجسد الشامخ. ثمة حياة قصيرة وثمة سعادة بعيدة وسماء قريبة تهدد في كل القصص، ومع ذلك فالحياة تستحق أن تُعاش، وإن يومًا لا يسعى فيه الإنسان إلى السعادة ليس محسوبًا من عمره.

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

ISBN 9789778524925

9 789778 524925

بتانة